

## الوعظ

المتنبى هذا الشاعر المشهور أصبح كالأسطورة  
في الناس ذيوماً وانتشاراً وأصبح مثلاً في الحكمة  
والاستشهاد بشعره في كل محفل، ونقف هنا مع  
بعض أشعاره في الوعظ، وهو قليلاً ما يعظ، فهو  
مشغول بشهرته، مشغول بلموعه، مشغول بالدنيا،  
مشغول بإعداد مكانة له في المجد الدنيوي المنتهي  
المنصرم، حتى إنك تجده عندما يبحث عن المعالي،  
تجده قتل روحه وأضنى جسمه، وهو يبحث عن  
الإمارة ويبحث عن منصب، خلاف الذين يريدون  
الأخرة، يقول في الوعظ:

أَبْنِي أَبِينَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ      أَبْدَأُ غِرَابَ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعِقُ

يقول: نحن عشنا في هذه الدنيا وغراب الفراق الموت دائماً معنا.

ثم يقول في موضع آخر:

نَبِيَّ عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ      جَمَعْتَهُمُ الدُّنْيَا فَلِمَ يَتَفَرَّقُوا

ثم يستمر في ضرب الأمثال، قائلاً:

أَيُّنَ الْأَكَاسِرَةَ الْجَبَابِرَةَ الْأُولَى      كَنَزُوا الْكَنُوزَ فَلَا بَقِيْنَ وَلَا بَقُوا  
مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِجَيْشِهِ      حَتَّى دَوَى فَحَوَاهُ لِحَدِّ ضَيْقُ  
خُرْسٍ إِذَا نُودُوا كَأَنْ لَمْ يَعْلَمُوا      أَنْ الْكَلَامَ لَهُمْ حَالِلٌ مُطْلَقُ

يقول: إذا أصبح هؤلاء الجبابرة والسلاطين والذين عاشوا ملوكاً أمواتاً أصبحوا

في القبور خرساً، لا يتكلمون عندما تتأديهم، تقول: السلام عليكم، كيف حالكم؟

إِنِّي أَتَيْتُ أَحَبَّتِي      بَيْنَ الْهَوَى فِي مَنبَتِي  
نَادَيْتُ أَيُّنَ أَحَبَّتِي      فَوَجِدْتُ أَيُّنَ أَحَبَّتِي

يعني: لا يوجد إلا الصدى، إلا الصدى لمصوت.

يقول: أتيت إلى القبور، فقلت: أين أحبتي؟ فرد علي الصوت الصدى من

الوادي قائلاً: أين أحبتي؟ نفس صوتي أنا، ما أجابوا.

وهذه القصيدة ابتدأ بها المتنبي بالحب والغزل وانتهى بها يمدح معن بن

أوس، يقول فيها وهي من أحسن قصائده:

أَرْقُ عَلَى أَرْقٍ وَمِثْلِي يَأْرُقُ      وَجَوَى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقُّ  
جَهْدُ الصَّبَابَةِ أَنْ تَكُونَ كَمَا أَرَى      عَيْنٌ مَسْهَدَةٌ وَقَلْبٌ يَخْفُقُ

ما لاح برقٌ أو ترنمٌ طائرٌ      إلا انثنيتُ ولى فؤادٌ شيقٌ  
وعذلتُ أهلَ العشقِ حتى ذقتُه      فعجبتُ كيف يموتُ مَنْ لا يعشقُ  
وعذرتُهم وعرفتُ ذنبي أنبي      غيرتُهم فلقيتُ منهم ما لقوا

كنت ألوم الناس: لماذا تعشقون؟ حرام عليكم، لا ينبغي أن تعشقوا، ضعيتم أوقاتكم، ثم يبدأ بالحكمة:

أبني أبينا نحنُ أهلُ منازلٍ      أبداً غرابُ البينِ فيها يُعرقُ  
نبي على الدنيا وما من معشرٍ      جمعتهُم الدنيا فلم يتفرقوا

يقول: يا بني آدم، يا إخواني يا زملائي، نحن سنفارق هذه الحياة.. انظر كيف انتقل مباشرة، لكي يصدم الممدوح بالصدمة الأولى بالمديح فيعظ، لأنه أتى إلى أناس فضلاء من أهل العلم والحكمة، فيريد أن يتبجح بأنه رجل زاهد ويعرف أن الموت حق. إلى آخر ما قال. وقد سقت لكم الأبيات والشاهد منها قوله:

كبرتُ نحوَ ديارهم لمأبداً      منها الشمسُ وليس فيها المشرقُ

يقول: عجباً رأيت الشمس ورأيت الجمال ورأيت هناك وجوه الناس.

الشاهد هنا: أن الرجل وعظ بالفراق في الموت وأن الإنسان قد ينتهي من هذه الحياة، وأن الدنيا ليست بدار قرار، وقد سبقه عدي بن زيد في الجاهلية، حتى يقول ابن المبارك العالم الرباني الزاهد المحدث: والله إن قصيدة عدي ابن زيد الجاهلي أحسن عندي من قصر الأمير عبد الله بن طاهر بن الحسين لو كان لي.

قصره طبعاً في خراسان شيء مذهل، مثل برج إيفل. إذا ذكرت برج إيفل فهو مشهور جداً، يقول: تعجبني قصيدة عدي بن زيد هذه أحسن من قصر

عبد الله بن طاهر بن الحسين الأمير، عدي بن زيد الجاهلي يقول في صفة الحياة. وكان المتنبي أخذ منه هذا المعنى، يقول:

أَيُّهَا الشَّامِتُ المَعِيرُ بالدَّهْرِ      أَنْتِ المَبْرَأُ المَوْفُورُ

يقول: يا من يشمت بنا إذا أصبنا بنكبات ومصائب، أنت مبرأ لا يأتيك شيء؟ عندك عهد من الله ﷻ ألا تأتيك نكبة، يا من شمت بنا إذا مات أبناؤنا أو أصبنا أو أتننا كوارث وأزمات، أنت لا يصيبك شيء؟

هَلْ رَأَيْتَ المَنِيَا خَلَدْنَ أُمَّ مَن ذَا      عَلَيْهِ مِمَّنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ

يقول: أمن أحدٍ عليه خفير فلا يضام؟ أحدٍ عليه وكيل ألا تأتيه بلوى؟ كلنا مشتركون في هذه المصائب، كل دار ملئت حيرة لا بد أن تمتلئ عبرة، تحت كل خصّة غصّة، هذه شيمة الدار.

تقول الخنساء:

وَلَوْلَا كَثْرَةُ البَاكِيْنَ حَوْلِي      عَلَيَّ إِخْوَانِهِم لَقَتَلْتُ نَفْسِي  
وَمَا يَبْكِيْنَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ      أَعَزِّي النَفْسَ عَنْهُ بِالتَّاسِي

فالناس أكثرهم في بلاء، من لم يبتل في جسمه ففي عقله.. في علمه.. في دينه.. في ماله.. في تجارته.. في أبنائه.. في كل وادٍ بنو سعد.

فهذا يقول: لا تقل: إنك تشمت بنا، سوف يقع لك مثل ما وقع لنا.

مر علي بن أبي طالب عليه السلام ببابل، فوجد قصور بابل قد تهدمت، كان فيها مملكة هاروت وماروت اللذين ذكرا في القرآن، سحر بابل هاروت وماروت، وكان فيها حضارة عظيمة، تهدمت القصور وماتت الأشجار وهاجرت الأطيار وذبلت الأزهار. ما بقي في الدار شيء. بكى علي وتمثل بقول الشاعر الجاهلي الأسود بن يعفور قال:

جرت الرياح على محل ديارهم فكدأنهم كادتوا عدى ميعاد

يقول: كأنما وقت لهم الزمان أن يذهبوا، لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون، كل أمة لها أجل، سبحانه الله! جعل الله لكل أمة ولكل شعب ولكل دولة ولكل إنسان أجلاً، مثل أجل الإنسان الفرد.

فمثلاً: أخذت الدولة البيزنطية مرحلتها، وكذلك دولة حمورابي، الأشوريين.. الكنديانيين.. الكنعانيين.. الفراعنة.. كل منهم أخذ مرحلته، ثم لما أتت الساعة انتهى أمرها وسقطت، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]. ولما أفناهم سبحانه وتعالى قال: ﴿هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مریم: ٩٨].

ونعود إلى عدي بن زيد، فيقال: جلس النعمان بن المنذر - وهذا من شعراء النعمان بن المنذر - وكان النعمان جاهلياً، وهو الذي مدحه شعراء كثر منهم النابغة، فجلس في حديقة غناء في الصحراء في يوم ربيع، وإذا الخزامى وإذا الشيخ وإذا الأزهار قد فاحت والطيور قد صدحت والنعيم هناك، والمنظر بهيج، قال عدي بن زيد وقد كان صاحب حكمة: يا أيها الملك، أتدري ما تقول هذه الشجرة؟ طبعاً الشجرة لا تقول شيئاً، لكنه قال هذا لكي يعرض له، قال: ما أدري ما تقول؟ قال: تقول:

رُبُّ رَكْبٍ قَدِ أَنْخَرُوا حَوْلَنَا      يَمْزِجُونَ الْخَمْرَ بِالْمَاءِ الزَّلَالِ  
عَبَرُوا جِينًا وَمَرُّوا زَمِنًا      ثُمَّ صَارُوا جُنْدًا تَحْتَ الرَّمَالِ

يقول: تقول: كم جاءنا من وفد وذهبوا، وكم قافلة مرت من هنا، وكم من ملك جلس عندنا يمزجون الخمر بالماء الزلال.

قال النعمان بن المنذر: والله لقد نعتت علي عيشي. فأمر بالخيام فقوضت، ثم جاءه بؤس وأسف وندم؛ لأنه وعظه وقال له: لا تقتر، أنت الآن تجلس هنا تلهو

وتلعب، قد مرُّ من هنا قبلك أناس وأمم وأجيال، ثم ذهبوا، قال سبحانه: ﴿وَقُرُونًا  
بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨].

فنحن في هذا المشهد مع المتنبى أحياناً يعظك، أحياناً ينبهك أن هناك  
فراقاً وأن الدنيا ليست بدار قرار. فهذه الدنيا لا تبقي على أحد، ولا يدوم على  
حال لها شان.

كما قال أبو البقاء الرندي:

أَيْنَ الْمَلُوكِ ذُووُ التَّيْجَانِ مِنْ يَمِينٍ      وَأَيْنَ مِنْهُمْ أَكْدَالِيْلٌ وَتِيْجَانُ  
وَأَيْنَ مَا شَادَهُ شِدَادُ فِي إِرْمٍ      وَأَيْنَ مَا سَاسَهُ فِي الْفَرَسِ سَاسَانِ  
أَتَى عَلَى الْكُلِّ أَمْرٌ لَا قِضَاءَ لَهُ      حَتَّى قَضُوا فَكَانَ الْقَوْمَ مَا كَانُوا

يعني: أصبحوا حُلماً، وهذه يتداولها الشعراء كثيراً، لكن المشكلة أن الإنسان  
قد يؤمن بهذه الأفكار ولكنه لا يطبقها في حياته، تجد أكثر الناس يقول: إن الموت  
حق ونحن سنموت، لكنه لا يعمل لما بعد الموت، وتجده يقول: هذه الدار ليست  
بدار قرار، وإنما دار غدارة خيانة غرارة، مع العلم أنه مجتهد في جمع الدرهم  
والدينار، ويعبد هذا، مع أن الإسلام يبيح لك أن تجمع المال من حله وتنفقه في  
حله، لكن أن يتحول الإنسان إلى خادم وإلى عبد وينسى حقوق الله وحقوق عباده،  
وينسى لقاء الواحد الأحد فهذا مذموم، ولذلك يقول ابن عيذون الأندلسي الشاعر  
المشهور في رثائه للمعتمد بن عباد ذلك الملك المضطهد المظلوم الذي انتهى  
بمأساة وكان مملوءاً بحكمة وعلماً ومجداً ونخوة وصرامة، ثم انتهى به المطاف  
إلى السجن أسيراً في أغمات، سجنه ابن تاشفين، ملك المرابطين، فكانت بنات  
الملك ابن عباد يمشين في الكافور في القصر، يعجن لهن الكافور فيمشين في  
القصر ويمشين فيه، فلما سجن أخذت بناته وطردن وأصبحن أسيرات ويعملن  
ويغزلن بالأجرة الثياب للناس، وخياطات، وأتت يوم العيد يزرن هذا الملك المهيب،

الملك العجيب، الذي كأنه بدر السماء، أتيت فلما رأهم من السجن مقبلات يزرنه حافيات، ما وجدن ثمن حذاء! انظر إلى الدنيا وتقلباتها، فالإنسان لا يثق بالدنيا، لكن بالإيمان والعمل الصالح، أي شيء لا تثق به، لا الصحة.. ولا الشباب.. ولا الأبناء.. ولا الثروة.. يبقى معك الإيمان والعمل الصالح.. الذكر الحسن.

فلما رأهن وإذا الثياب مشققة، وهن حسيرات كسيرات بكى وتفتجع وقال مخاطباً نفسه:

بالأمس كنتُ بالأعيادِ مسروراً      فزارك العيدُ في أغماتٍ مأسوراً  
ترى بناتك في الأظمارِ باليةً      يطأنُ في الطينِ ما يملكنَ قَطْميراً  
يطأنُ في الطينِ والأقدامُ حافيةً      كأنها لم تطأ مسكاً وكافوراً

يعني: أما مر أن هذه الأقدام قد مشت من قبل على المسك والكافور، ما لهذا الدهر تغيير؟ حتى يقول الأعشى وقد كان في منفوحة في الرياض، وذهب يمدح الرسول ﷺ في قصيدة، لكنه ما تمكن من إلقاتها، صرفه حب الدنيا، أعطاه أبو سفيان مئة ناقة فترك الإسلام والرسالة ورجع بمئة ناقة، وسقط من على ناقة في منطقة ديراب هنا قريباً من الرياض ومات، فهو يقول في أول قصيدته:

شبابٌ وشيبٌ وافتقارٌ ولدنةً      فلدنه هذي الدارُ كيف تردداً

فقصدي من هذا الشاهد أن ابن عيذون الأندلسي يرثي ابن عباد يقول:

الدهرُ يضجُّ بعدَ العينِ بالأثرِ      فما البكاءُ على الأشباحِ والصُورِ  
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظةً      عن نومةٍ بينَ نابِ الليثِ والظفرِ

يقول في آخرها وهو يتحدث عن المنية: إنها ما تبقى أحداً، تزور صاحب القصر وصاحب العيادة وصاحب المتجر والطبيب والمهندس والفيلسوف والشاعر.. تختطف أرواحهم، ثم يقول فيها:

فليتّها إذ فدت عمراً بخارجة فدت علياً بمن شاءت من البشر

انظر إلى هذا اللغز التاريخي ليتها فدت عمراً وهو عمرو بن العاص، وخارجة كان أشبه بمدير الشرطة أو رئيس الشرطة لعمرو بن العاص؛ لأن الخوارج أرادوا قتل علي رضي الله عنه ومعوية وعمرو بن العاص، فجهزوا ثلاثة في ليلة واحدة، فأما قاتل علي وهو عبد الرحمن بن ملجم فوجد علياً فقتله، فصار علي شهيداً، وغضب الله على عبد الرحمن بن ملجم ولعنه، وهو الخارجي.

وأما عمرو بن العاص فذهب له الخارجي في مصر؛ ليقتله وكان عمرو بن العاص قد مرض -سبحان الله، هي الأقدار!- تلك الليلة بجمي، فأرسل مدير الشرطة؛ ليصلي بالناس الفجر، فحسب الخارجي أنه عمرو بن العاص فقتله.

فمقصود ابن عيّنون: لما فدت المنية عمرو بن العاص وجعلت خارجة مكانه، فليتّها أيضاً أخذت من شاءت من البشر، وتركت لنا علي بن أبي طالب أبا الحسن.

وعلى ذكر علي فقد كان آية في الزهد، وهو صاحب الكلمات الواصلة التي إلى القلوب حاصلة، حتى إن البخاري في كتاب الصحيح في الرقاق بدأ كتابه بقوله:

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ارتحلت الآخرة مقبلة وارتحلت الدنيا مدبرة، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل».

ويقول في كلمة له: «يا دنيا دنية، غري غيري، طلفتك ثلاثاً لا رجعة بعدها، زادك حقير، وعمرك قصير، وسفرك طويل، أه من وحشة الزاد وبعد السفر ولقاء الموت».

ولذلك قال المتنبّي:

أبداً تستردّ ما تهبّ الدنيا فيأ لست جودها كان بخأ

هذه فلسفة المتنبى. يقول: إذا أعطتك الدنيا شيئاً تسترده من جهة أخرى، يصح عندك الابن تموت البنات، يتشافى عندك البصر يذهب السمع، فليتها أمسكت رأساً برأس، كفافاً لآلي ولا علي، كما قال عمر رضي الله عنه في سكرات الموت: «يا ليتني نجوت منها كفافاً لآلي ولا علي» أي: من الخلافة، وقد كانوا يبشرونه، يقولون: أبشريا أمير المؤمنين، أسلمت فكان إسلامك نصراً، وهاجرت فكانت هجرتك فتحاً، وتوليت فكانت ولايتك رحمة.

وهذا صحيح، كل ما قالوه صحيح، فبكى وقال: «يا ليتني نجوت منها كفافاً لآلي ولا علي».

فالمتنبي جمع هذه المعاني وقال:

أبداً تسترد ما تهب الدنيا      فيا ليت جودها كان بخلاً

الآن يبارك للإنسان في المنصب، لا يكاد يمكث فيه، وإذا بالعزل يفاجئه.

فهذه فلسفة المتنبى إذا أراد أن يعظ، فهو يتكلم في الوعظ أحياناً، ولا يكثر في ذلك.

والمتنبي له في أبواب الوعظ والموت فصول، ولكنه يجيد صراحة إذا أراد وإذا كان صادقاً في الرثاء، وإذا كان يحب هذا الميت، فإنه يصدق في الدموع ويصدق في إخراج الأهات والزفرات واللوعات عليه، حتى قال في قصيدة يرثي وزيراً عند سيف الدولة اسمه: يماك، يقول:

وقد فارق الناس الأحبّة قبلنا      وأعياناً دواء الموت كل طبيب

يقول: كل إنسان فارق خليله، فالموت لم يستطع حتى الأطباء أن يكتشفوا له حلاً، اكتشفوا حلاً للأمراض وللآلام.. وعقاقير.. وأدوية.. والعلاج.. لكن الموت لا.

يقول الحسن البصري: فضح الموت الدنيا، فلم يدع لذي لب فرحاً.

فكل إنسان مهتد بالموت، فالمتنبي أجاد في نظمه ذلك، إلى أن قال:

وَلَا فَضْلَ فِيهَا لِلْمَرْوَةِ وَالنُّدَى وَصَبْرَ الْفَتَى لَوْلَا لِقَاءُ شُعُوبِ

وشعوب: المنية، الموت من أسمائه شعوب، يقول: لو أنه لم يكن موت لما كان هناك خير للفضيلة وللجود وللشجاعة وللذكاء والبراعة، لكان الناس سواسية. لكن لما كان هناك موت وحساب صار الجواد أحسن من البخيل، والشجاع أحسن من الجبان. ثم يصف الدنيا قائلاً:

تَوَرَّكُمَا الْآتِي تَوَرَّتْ سَائِبٌ وَفَارَقَهَا الْمَاضِي فَرَّاقٌ سَلِيبٌ

يقول: ابنك يأتي بعدك يتورث، فكأنه سلبك ملكك. والوالد مسكين فهو مسروق، ابنه يأتي إلى الدنيا فيسلبه سلباً.

وهذه الفلسفة عند الشعراء يكثر منها ولكنهم في الغالب يصدقون؛ لأن الموت هو ساعة الصفر كما يقول الطنطاوي، ساعة الصفر يعني ساعة الموت، يذعن فيها المتكبر ويلين فيها القاسي، ويتواضع فيها الجبار، ويضعف فيها القوي، ويفتقر فيها الغني.. فهي لحظة تزول بهارج النفس فيها.

حتى إن فرعون الهيلمان.. والقوة.. القائل: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [الفصص: ٣٨] لما أتت ساعة الصفر قال: ﴿ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الْإِلَهِيُّ ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] انظر كيف حقق لأنه وصل إلى درجة وإلى ساعة وإلى لحظة تنتهي الزخارف والادعاءات والإغراء وطغيا، النفس وجبروت الخاطر.. كل هذا ينتهي، يقول كعب بن زهير:

كُلُّ ابْنِ أَنْثَى وَإِنْ طَائَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آتَةِ حَدْبَاءَ مَحْمُولٌ

يقول: مهما طال عمر الإنسان ومهما عمر وشاد وساد واغتنى وذهب وشمخت نفسه.. فسوف يحملونه على خشب وهي الآلة الحدباء وسيذهب إلى الآخرة، هذه

قصة الموت. ولذلك فقد وقفت معه؛ لأن المتنبّي وقف معه في بعض أبياته وفي بعض قصصه وهو يتحدث عن الفراق، حتى إنه لما ماتت أخت سيف الدولة وكان مسافراً، كان في العراق، فيقول:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ      فرعّت فيه بأمالي إلى الكذبِ

ولا يقصد الجزيرة العربية، بل بلدة في العراق، يقول: قلت أسأل الله أن يجعله كذباً، إن شاء الله ليس هذا الخبر صحيحاً. وهذا مجاملة ونفاق، يريد أن يجامل سيف الدولة يقول: لما ماتت أختكم والله لقد جاءني من الهم والغم وجاءني من الإزعاج، حتى قلت: أسأل الله أن يكون هذا الخبر غير صحيح، لكن انظر إلى الإبداع اللفظي مع هذا الرجل، حتى في مطلع القصيدة يقول:

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب      كنايةً بهما عن أشرف النسبِ  
طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ      فرعّت فيه بأمالي إلى الكذبِ  
حتى إذا لم يدع لي صدقه كذباً      شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

الله أكبر! من أين يأتي بهذه المعاني وهذه الألفاظ... وهذه الإبداعات.. يقول: والله إنني غرقت بالدمع حتى صار الدمع كأنه يفرق بي أنا، وهذا من غاية ما يفعله.

يقول أحد الأباء لابنه: يا بني، إياك والشعر الفاتر، إما جامد مثلج يكسر العظام، وإلا حار يقطع المصران.

أما الشعر الفاتر فلا حماسة له. وغالب شعر المعاصرين تجده فاتراً.

والصاحب بن عباد كان عدواً للمتنبّي، وكان وزيراً من أشهر الوزراء، لكنه كان يكره المتنبّي؛ حسداً فقد كانا متعاصرين، وكان المتنبّي لا يمدح إلا الملوك أما الوزراء فلا، وربما مدحهم، لكن رفض أن يمدح الصاحب بن عباد، فوقع

بينهما ما وقع من خلاف، فقال الصاحب بن عباد لأهل إمرته وولايته: لا تستشهدوا بشعر المتنبى أبداً. فلما ماتت أخت الصاحب بن عباد أنته ستون رسالة، من أمراء الأقاليم بيتين للمتنبى قالهما في أخت سيف الدولة، وكلما فتح رسالة وإذا في أولها:

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبْرٌ      فَرَعْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكُذْبِ  
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْعُ لِي صِدْقُهُ كَذِبًا      شَرَفْتُ بِالِدَمْعِ حَتَّى كَادَ يَشْرُقُ بِي

قال: هذا رجل أصبح مثل الشمس، أُنشِدُوا أشعاره.

وكان المتنبى يريد أن يذهب إلى عضد الدولة في شيراز وفي طريقه الصاحب ابن عباد، يمر به، فلا بد من أن يعطيه قذيفة من قصائده ثم يمضي، وكان في الطريق قاضٍ، والمتنبى يريد أن يعرض بالصاحب بن عباد، فيقول:

لَوْ اسْتَطَعْتُ رَكِبْتُ النَّاسَ كُلَّهُمْ      إِلَى سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بُعْرَانَا  
فَالْعَيْسُ أَعْقَلُ مِنْ قَوْمِ رَأَيْتُهُمْ      عَمَّا رَأَى مِنَ الْإِحْسَانِ عُمَيَّانَا  
عَبْدٌ فَيَسْجُدُ مِنْ بِلْسُوِّ يَذْكُرُنِي      فَلَا أَعَاتِبُهُ صَفْحًا وَإِهْوَانَا  
كَذَاكَ قَدْ كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطَنِي      إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حَيْثُمَا كَانَا  
مُحْسَدُ الْفُضْلِ مَكْنُوبٌ عَلَى أَثَرِهِ      يُغْتَابُ سِرًّا وَيُثْنَى فِيهِ إِعْلَانَا

فالجواد إذا حضر يمدحه الناس وإذا غاب يعتابونه، وهذا هو السيد. قيل للأحنف بن قيس: من هو السيد؟ قال: مَنْ إِذَا قَدِمَ هَابُوهُ وَإِذَا أُدْبِرَ اغْتَابُوهُ. والناس لا ترمي إلا الشجر المثمر.

فانظر إلى هذه العظمة التي فيه، وهو فقير وصلوك، لكنه لديه عبقرية.

يقول: لا يغررك كوني يتيماً، فأنا قوي ولا أقبل أحداً، وأنا مصمم على ألا

يسبقني أحد. هذه عبقرية نادرة.. وهذا أصبح له وجود في الساحة، ولذلك لا تلغي أحداً من المؤثرين، فإنك لا تستطيع فعل ذلك أبداً؛ لأن له أتباعاً وله شرائح وله مشاهدين وله من يسمع وله من يقرأ وله من يحب، فهذا المتنبئ لا بد أن تعترف به، وهذا الذي فعله الصاحب ابن عباد لعقله ولو كان عدواً له.

ومن المعاصرين كان ابن عثيمين، ليس العالم، بل شاعر آخر اسمه محمد ابن عثيمين، يقول:

هُوَ الْمَوْتُ مَا مِنْهُ مَلَاذٌ وَمَهْرُبٌ      مَتَى حَطَّ ذَا عُنْ نَعِشِهِ ذَاكَ يَرْكَبُ

يقول: لا تكاد تنتهي الجنازة الأولى، حتى تلحقها أختها، ونظل نتنقل من العمار إلى الدمار، من القصور والدور إلى القبور.. وهكذا.

فالموت وراءك أينما ذهبت، تذهب في السفينة فهو وراءك، وفي الطائرة معك، وفي المكتب، تدخل الفار خلفك، تجلس في العيادة معك، لا يفارقك.

وانظر إلى الأسلوب القرآني الراقي الذي هو أجل من الشعر، وارتفع عن النثر، وعظم عن الأدب، يقول الله جل وعلا في ذلك: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: 8] إذا فررت من الشيء فأين يكون هذا الشيء؟ يكون وراءك، تفر من الأسد والأسد وراءك، تفر من الثعبان والثعبان يطاردك، فانظر إلى أسلوب القرآن: ﴿الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ وهو في الحقيقة أمامكم وليس خلفكم، فأنتم تفرّون إليه، كما قال القائل: **فَرَّ مِنْ الْمَوْتِ وَفِي الْمَوْتِ وَقَعَ.**

فأنت تفر إلى الموت، قرأت في قصص سليمان بن داود عليه السلام أن ملك الموت نزل في مجلسه، قال لملك الموت: إلى أين تذهب؟ قال: أمرني ربي أن أقبض رجلاً من رعيتك في فلسطين بأرض الهند، وقد بقي على أجله أيام والله أمرني أن أقبض روحه في الهند، وهو معك في فلسطين، فكيف هذا وبينما هو جالس

وإذا برجل أتى ودخل على سليمان وهو هذا الرجل المحكوم عليه بالموت من الله، قال: يا نبي الله، أريد أن تأمر الريح أن تنقلني إلى الهند لغرض لي هناك، فتيسم سليمان وأمر الريح بنقله إلى الهند، كما قال سبحانه عنها: ﴿غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢] ويركب سليمان والأمراء والعسكر والجنود كلهم على بساط الريح، فإذا أرادت أن تنزل قال: ﴿رُحَاءَ حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦] يعني: تهبط شيئاً فشيئاً، حتى تصل المدرجات بهدوء، فقبض روحه بعدما انتقل.

وبالمناسبة مر أحد الشعراء في مصر بقبر الإمام محمد عبده المفسر الكبير غفر الله له، وقال بيتاً جليلاً سبحانه الله! وقد كان مر على وفاته أربعون ليلة، فوقف الشاعر وبكى كثيراً، قال لمحمد عبده يخاطبه وهو في القبر مدفون من أربعين ليلة:

لَمْ لَا تَجِيبُ وَقَدْ دَعَوْتُ مَراراً      يَكْفِي سَكَوتُكَ أَرْبَعِينَ نَهَاراً ١٩

يقول: سلمنا.. سأنا عنك.. كيف أخباركم.. يا إمام.. تكلم.. رد علينا التحية.. هذا من الشجن.. هو يعرف أنه لن يرد عليه التحية، لكنه يريد أن يقطع قلبك؛ لأن هذا كان رجلاً مؤثراً مفسراً، وكان مصلحاً، يقول: منذ أربعين يوماً ونحن نمر على قبرك.. ولم ترد علينا السلام مرة واحدة!

حتى المتنبى كما مر معنا يقول:

خَرَسَ إِذَا نَوَدُوا كَأَنْ لَمْ يَعْلَمُوا      أَنْ الْكَلَامَ لَهُمْ حَلالٌ مُطْلَقٌ

يقول: نسلم على الملوك والجبابة والعلماء والكيار يقول: الكلام حلال فلم لا تتكلمون؟ ليس الكلام حراماً، لكنهم لم يستطيعوا، يقول علي بن أبي طالب عندما سلم على القبور: «كيف أخباركم؟ ثم قال: سكتوا والله! ولو نطقوا لقالوا: ﴿وَتَكَرَّوْا فَاِنَّ خَيْرَ الْبَرِّ الْقَوِيُّ﴾ [البقرة: ١٩٧].»

فإذا أردت أن تعرف الحياة، فمر بالمقبرة.

يقول إستيفن كوفي: مررت بمقبرة في كلفورنيا، فرأيت قبر رئيس الجمهورية بقبر الفقير، واللاعب المشهور الكبير بقبر اليتيم، كلهم سواء، يقول الشاعر:

أُتِيَتْ الْقُبُورُ فَنَادَيْتُهَا:      فَأَيُّنَ الْمَعْظُمُ وَالْمَحْتَضَرُّ؟  
تفانئوا جميعاً فما مخبرٌ      وماتوا جميعاً وماتَ الخَبَرُ  
فيا سائلي، عن أناسٍ مضوا      أما لك فيما مضى معتبرُ  
تروخ وتغنو بناتِ الثرى      فتمخو محاسنَ تلك الصُّورُ

القبور من ظاهرها سواء، وفي داخلها وزير.. وحارس عمارة.. ورجل بسيط.. ومجنون.. وقائد الجيش.. كلهم سواء! المسكين.. والمتملق.. وآخر ذكي عبقري فيلسوف.. وآخر أحمق.. لكن القبور سواء.

وكل إنسان له أن يتجهز بصورة ظاهرية، ويحاول أن يجعل هيكله ولباسه، فهذا مطلوب في الإسلام، يقول ﷺ كما في صحيح مسلم: «إن الله جميل يحب الجمال» لكن عليك أن تجعل روحك، ما دمت تجعل الهندام والشخصية والهيكل، فلا بد من أن تجعل روحك بالفضيلة.. بالبر.. بالتقوى.. بعمل الصالحات.. بحب الخير للناس.. بالرحمة بعباد الله ﷻ.. بالتواضع.. بحسن الخلق..؛ حتى تكون هناك سمات إسلامية تميزك.

فالمثني بجرك في هذا الحديث؛ لأنه يسوقك بحكمته وبإبداعه إلى موضوع، فيستولي على الموضوع نفسه فيكون أحسن ما يقول في الباب، وإلا فقد سبقه شعراء، فأبو ذؤيب الهذلي مات له سبعة أبناء بالطاعون، فسهر وبكى حتى قال:

أَمِنَ الْمَنُونِ وَرِيْبِهَا تَوَجُّعٌ؟      وَالْدَهْرُ لَيْسَ بِمَعْتَبٍ مَنْ يَجْزَعُ  
قَالَتْ أُمَيْمَةُ مَا لَجْسِمِكَ نَاحِلٌ      مِنْذُ ابْتَلَيْتَ وَمِثْلُ مَا لِكَ يَنْفَعُ

أميمة هذه زوجته، تقول: ما لك سهرت وتفجعت؟ قال: كيف لا أتفجع على  
أبنائي! سبعة ماتوا بالطاعون في سنة واحدة! حتى يقول:

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها أفضيت كل تميمة لا تنفع

يقول: إذا جاء الموت فلا تنفع تميمة ولا رقية ولا حرز ولا علاج ولا عقاقير ولا  
شيء.. لو يأتون بأكبر أطباء العالم، فإنهم لا يستطيعون فعل شيء.

فلذلك ينبغي عليك أن تعرف هذه الحقيقة، لا بد من أن نصل إليها كما  
ذكرها المتنبّي وغيره من الشعراء؛ لأننا نكتب في مجال الأدب، وإلا فقد وعيت  
نصوصاً كتاباً وسنة.



## الكتاب

يقول أبو الطيب المتنبي:

أعزُّ مكانٍ في الدُّنْيا سرجُ سابعٍ

وخيرُ جليسٍ في الزَّمانِ كتابُ

وهذا من قصيدته التي من أبياتها الكلام

المشهور، يقول:

وللسرِّ منِّي موطنٌ لا ينالُه

نديمٌ ولا يفضي إليه شرابُ

إلى أن يقول:

وفي النَّفسِ حاجاتٌ وفيك فطانةٌ

سُكُوتِي بيانٌ عندها وخطابُ

وهو يخاطب بذلك كافور والشاهد هنا: أنه يقول: (وخير جليس في الزمان كتاب)، وهي من الحكم التي سارت عند العلماء والمفكرين والمثقفين وصدقوها، وهي من دقائق ما وصل إليه في حكمته البناء، فيقول: أحسن من تجالسه الكتاب، وهذا معنى مطروق، لكن يأتي شاعر في حجم المتنبي وفي قامته ويأتي بهذه الحكمة ويهديها للناس فيكون لها وقع خاص؛ لأنه يهتم بالمعرفة ويهتم بالعلوم، حتى يمدح العلماء.. يمدح القضاة.. يمدح الكتاب الذين يهتمون بالعلم والثقافة، يقول لأحد العلماء:

علامة العلماء واللجج الذي لا ينتهي ولكل لئج ساحل  
افخر فإن الناس فيك ثلاثة: مستعظم أو حاسد أو جاهل  
وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

وتجده أيضاً يشيد بالمعرفة وبالكتابة وبالخبرة العلمية، فلما وصل إلى ابن العميد وهو الكاتب المشهور يقول:

بادِ هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك إذ لم يجردمك أو جرى  
ثم يقول:

من مخبر الأعراب أني بعدهم جالست جالنيوس والإسكنندرا  
ودرست بطليموس دارس كتبه متعلماً متبدياً متحضراً  
قطف الرجال القول قبل نباته وقطفت أنت القول لماً نوراً

الشاهد قوله: أحسن من تجلس معه الكتاب، حتى يقول أمير الشعراء شوقي:

أنا من بدل بالكتب الصحابا لَم أجِد لي وافيأ إلا الكتابا

وهذا يحصل للإنسان بعد تجربة طويلة، فيجد أن الوفاء في الناس قليل، وأن أحسن ما يفعله الإنسان بنفسه أن يصاحب كتاباً نافعاً مفيداً، وأجل الكتب وأحسنها وأنفعها وأفيدها وأبركها كتاب الله سبحانه وتعالى؛ حتى يقول سبحانه: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]. إذا ذكرت الكتب.. إذا ذكرت المصنفات.. إذا ذكرت المؤلفات فذلك الكتاب، إذا سمعت بتأليف علمي، أو بديوان شعري، فأجل من ذلك الكتاب، وأشار بالبعد تعظيماً لهذا الكتاب المحكم الذي أنزله على سيد الخلق عليه الصلاة والسلام.

وهناك كتابان: كتاب وحي مكتوب شرعي وهو القرآن الكريم، وكتاب مفتوح وهو كتاب الكون فيه حروف القدرة، قلم القدرة خط أسطر الوجدانية وجمل الصمدانية وحروف الإبداع فأنت تقرؤه، حتى يقول إيليا أبو ماضي:

وكتابُ الفضاءِ أقرأ فيه      صوراً ما قرأتها في كتاب

لأن في الكون علامات وأحرفاً وأسطراً وأبياتاً تدلك على الواحد الأحد،  
الزهرة تشير إلى عظمة الله.. الورقة.. اليرقة.. السناء.. الماء.. الضياء..  
الظلماء.. السماوات.. الأرضون، كلها.

وفي كل شيء له آية      تبدل على أنه واحد

فيا عجباً كيف يعصى الإله      أم كيف يجحده الجاحد؟

نعود إلى أبي الطيب المتنبي وهو يمدح الكتاب والمكتبة، فيقول: حاول أن يكون عندك كتب تعاشرها وتقرؤها وتنفق الوقت فيها.

ابن عبد البر أمضى في كتاب الاستذكار والتمهيد ثلاثين سنة عند رأسه يحبر فيه، والعجيب أنهم يذكرون عن ابن دريد أن كتاب الجماهرة جلس معه يحبر فيه ويجمعه ستين سنة، يقول:

أُنسْتُ بِهِ مِنْ بَعْدِ سِتِينَ حِجَّةً      فَيَا طُولَ شَوْقِي بَعْدَهُ وَحْنِي!

لأنه باعه فيما بعد، باع الجمهرة لماذا إذا كانوا فقراء، حتى باع خشباً عنده في البيت؛ ليقوت أهله، يأكل خبزاً هو وأطفاله، بعدما انتهى الخشب باع مطرفته، باع أدوات البيت، ثم باع الفراش، لم يبق إلا كتاب الجمهرة جمع فيه ستين سنة تعباً وسهراً وعناءً بالجهد والعرق والتضحية والسهر، ثم باعه؛ لكي يطعم أطفاله، ورجع يبكي في البيت وينظم قصائد وهو يبيع، كتب أبيات على الجمهرة يقول:

أُنسْتُ بِهِ مِنْ بَعْدِ سِتِينَ حِجَّةً      فَيَا طُولَ شَوْقِي بَعْدَهُ وَحْنِي  
وَمَا كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَعِيشَ بِمُونِهِ      وَلَوْ خَلَّدْتَنِي فِي السُّجُونِ دُيُونِي  
وَقَدْ تَخْرُجُ الْحَاجَاتُ يَا أُمَّ مَالِكٍ      نَفَائِسَ مِنْ رَبِّ بَهْنٍ ضُنِينِ

يقول: حاجة الفقر، وهذا البيت لجاهلي اسمه السلمي باع إبلاً حمراء له فلامته زوجته واسمها أم مالك، فقال:

وَقَدْ تَخْرُجُ الْحَاجَاتُ يَا أُمَّ مَالِكٍ      نَفَائِسَ مِنْ رَبِّ بَهْنٍ ضُنِينِ  
يعني: من القائم عليها؛ لأنه محتاج مع أنه يغنيها.

يقولون: إن صاحب بن عباد جاء فيما بعد، فقرأ هذه الأبيات فبكى بعدما مات المؤلف، والصاحب بن عباد كان أميراً موسراً، فبكى وقال: ليتني أدركت ابن دريد كنت ملأت بيته ذهباً. كان جواداً.

والعجيب أن ابن دريد أديب وشاعر وهو صاحب المقصورة المشهورة التي هي أشهر مقصورة في تاريخ الأدب العربي التي يقول فيها:

يَا ظَبِيَّةَ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِأَلْمَهَا      تَرَعَى الْخَزَامَى بَيْنَ أَشْجَارِ النَّقَا  
إِلَى أَنْ وَصَفَ الشَّيْبَ.

وَاشْتَعَلَ الْمَبِيضُ فِي مَسْوَدِهِ      مِثْلَ اشْتِعَالِ النَّارِ فِي جَزْلِ الْغَضَا

إلى أن يقول:

والناس ألف منهم كواحد  
وواحد كالألف إن أمر عنا  
وإنما المرء حديث بعده  
فكن حديثاً حسناً لمن وعى

وكان له زميل وصديق يحسده - فبعض الأصدقاء يحسدون - وهو في ثوب صديق، لكنه عدو، وهو من أقرانه اسمه ابن نبطويه نحوي، فقال:

ابن دريد بقرة  
ألف كتاب الجمهرة  
وهو كتاب العين  
إلا أنه قند غير

كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، يقول: إنك سرقت كتاب العين، وهو ليس لك أصلاً، لكنك أدخلت وغيرت، فرد عليه بأبيات، واسم ذلك نبطويه، فإذا قسمت الاسم صار نبط/ويه، وفي آخر القصيدة قال فيه:

أحرقه الله بنصف اسمه  
وجعل الباقي عويلاً عليه  
وأما سيبويه فإنه ألف الكتاب.

وبالمناسبة فمن العجز الثقافي عند الأمة قولهم: طالب في الثانوي سأله الأستاذ: الكتاب لسيبويه من ألفه؟ قال: الله ورسوله أعلم! فهذا ورع مظلّم، هذا هو الورع المظلّم الذي يعيشه هؤلاء، ولذلك تجد أن بعض الناس لا علم عنده ولا ثقافة، لكنه يخرج دائماً ولسان حاله يقول:

أنا ابن جاد وطالع الدنيا  
متى أضع العمامة تعرفوني

ولكنه لا يحفظ في جانب الشريعة أية الكرسي، وفي جانب الفهم والثقافة لا يعرف ابن رشد ولم يسمع به ولا بابن خلدون، فدل على أنه ينبغي أن نهتم بالكيف، ولا نهتم بالكم على حساب الكيف: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] إن الدبكة الشعبية والسهرات الضائعة وقصائد المديح على منهج:

(أستم خير من ركب المطايا) لا تخرج لنا عقولاً نيرة، إنما العقل النير يخرج بالعلم النافع، وخيره وأساسه الذي بعث به الرسول عليه الصلاة والسلام، وانظر إلى علمائنا كيف يشق الواحد منهم حياته مع الكتاب، ثم يترك لنا كتاباً يبقى يحبر فيه ثلاثين.. أربعين.. خمسين سنة.

ابن حجر العسقلاني الحافظ خاتمة حفاظ الدنيا في الحديث ألف فتح الباري في ثنتين وثلاثين سنة، شرح فيه صحيح البخاري، هذا الكتاب أعجوبة، مراجعه أكثر من ألف كتاب، حبره وقدمه للأمة، ويأتي الجيل الجديد يعجز، يعجز بعض الطلبة أن يقرأ عشر صفحات، أن يتبرع بعشر صفحات.

فهذا العمر الذي صرفه فيه ثنتين وثلاثين سنة؛ سهر وتعب وتحقيق وتدقيق، ثم لا يتبرع أحد منا أن يقرأه مجرد قراءة، هل وضعت في مخططك أن تطلع على هذا الكتاب، وأن تقرأ بعض الفوائد فيه؟

والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني على ما فيه، وأنا أعترض على التشويه العقدي في الأغاني وعلى السوء الأدبي، أعني: الأدب المنهجي وعلى المجازفة في النقولات، لكن لا يزال فيه قصائد وفيه قصص وفيه تراث أدبي، حتى ابن خلدون يقول: إنه منتهى ما وصل إليه الأدب، يعني: الأغاني، هذا ألفه في خمسين سنة وقدمه للملوك هدية، أرسل لملك مراكش وسيف الدولة ابن حمدان وأرسل إلى أهل العراق، وأرسل إلى أهل المشرق، أرسل لكل نسخة، لم يكن هناك مطابع، يقول الصاحب بن عباد: كادت كتبي تحمل على اثني عشر جملاً، فلما اقتنيت كتاب الأغاني اكتفيت بهذا الكتاب، وإنما القصد من ذلك أنهم كانوا ذوي همم في التأليف.. همم في القراءة.. همم في التكرار.

انظر إلى ابن المبارك إذا صلى العصر دخل منزله ونشر كتب الحديث، فقال له أصحابه: يا أبا عبد الرحمن، ما تجلس معنا؟ قال: أنا أجلس مع

الرسول ﷺ ومع الصحابة، أنتم تغتابون الناس، قالوا: كيف تجلس مع الرسول ﷺ والصحابة؟ قال: أجلس مع الكتب، كتب العلم، كتب الحديث، فكأنك جلست مع الرسول ﷺ ومع أصحابه.

وكان الإمام أحمد يوصي من سافر: خذ معك كتباً، حتى لا تستوحش. فهم يحفظون أوقاتهم بهذا، لم يكونوا يقلبون من قناة إلى قناة، ولا من فن إلى فن، ولا من موضة إلى موضة، إنما كانوا يجتهدون في طلب الفائدة، ويعلمون أن أعمارهم تذهب سريعاً، وكانوا يعدون الثانية والدقيقة، كما يقول شوقي:

دقات قلب المرء قائمة له      إن الحياة دقائق وثوان  
فأرفع لنفسك قبل موتك ذكرها      فالذكر للإنسان عمر ثان

ويقول أبو الطيب الأسطورة في ذلك:

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته      ما قاتته وفضول العيش أشغال  
من قصيدته التي مطلعها:

لا خيلَ عندك تهديها ولا مالُ      فليسعدِ النطقُ إن لم تُسعدِ الحالُ

وفي ذاك البيت الفريد الذي لا يستحقه إلا رب العزة سبحانه وتعالى، يقول:

استوجب الحمد حتى ما لمفتخرٍ      في الحمد حياءً ولا ميمٍ ولا دالُ

وهذه من سيرتهم في العلم والمعرفة، حتى إن الجاحظ - على ما سبق لنا من كلام أبي الطيب - يرى أنه أفضل جليس، فهو الذي لا يطريك، ولا يؤذيك، ولا يملُّك، ولا يضجرك، ولا يفشي لك سراً.

وصفه بوصف ما سبق له. حتى الجاحظ هو إمام البيان عند العرب على ما فيه من المجازفات في بعض نقولاته، لكنه في صنع الكلمة وفي الجملة لا يؤتى

مثله في النشر، حتى يرى أبو حيان التوحيدي أنه بارز في بابيه مثلما أن عمر رضي الله عنه بارز في العدل، والحسن البصري بارز ظاهر ورمز في الوعظ، فيجعل الجاحظ في هذا الباب.

والجاحظ كان يقرأ ليلاً ونهاراً حتى أثمر لنا هذه الثقافة وهذا البيان وهذا الإبداع، وقد بلغ من ولعه بالكتاب أن سقطت عليه مكتبته ومات تحت الكتب. فله در هذه الهمم التي تركت خيراً كثيراً، وتركت أدباً، وتركت بياناً، والأفضل من هذا أهل العلم الشرعي النافع، كالشافعي وأحمد وأبي حنيفة ومالك.. وأمثال ذلك غفر الله للجميع.

جلست مع الشيخ الأديب الكبير علي المنطوي في مكة، ومعني بعض الفضلاء، فكان يحدثنا عن مسيرة حياته في العلم والمعرفة والقراءة، فقد ذكر في مذكراته أنه عاش عمر القراءة والمطالعة، له ما يقارب السبعين سنة، يقرأ في كل يوم شيئاً محددًا خمسين صفحة، غير ما يزيد من الاطلاع العام، قال: فانظر السنوات واضربها في الأيام ثم اضربها في خمسين فأثمر عنده موسوعة في العلوم والفنون والأخبار والآداب ومعرفة الأمم، فهذا الذي يفهم عن الله ﷻ رسالته ويفهم كتاب الله ﷻ، يوم يكون أفقه واسعاً، وإنما تأتي هذه القراءة بالكلفة، ثم تصبح ألفة.

لا بد للإنسان من أن يرتب لنفسه جزءاً من الوقت يومياً؛ حتى يستطيع الكتابة، وعند بعض الناس جلد في القراءة، حتى إنني قرأت كتاباً اسمه: كيف أصبحوا عظماء للدكتور الكلابي، يتحدث عن عظمة الأمم وأنهم يصيرون، ثم ذكر عن واحد ياباني أستاذ ثورة الصناعة عندهم اسمه أوكايو أوساهيرا عامل بسيط، ذهب يدرس في ألمانيا، قال: وذهبت إلى صاحب ورشة في ألمانيا، فأجرت نفسي عنده خمس عشرة ساعة في اليوم على وجبة واحدة، وكان يهينني ويدلني، فصبرت؛ لأنني أريد أن أنقل الحضارة الصناعية لليابان، خمس عشرة ساعة من

العمل.. من العرق.. من الجهد.. من الإذلال، وبعدها اكتشف كيف يصنع المحرك، كيف يتحرك؛ لأن هذا أساس الصناعة، قال: فرسمت المحرك وامتألت غرفتي التي أسكن فيها بالأوراق، وأخيراً اهتديت وأرسلت لليابان كيف يعمل المحرك، فلما وصل الخبر وجئت إلى أهلي استقبلني إمبراطور اليابان، قال: فصنعت المحرك لهم، فسمع الصوت إمبراطور اليابان، قال: هذه أحسن موسيقى سمعتها في حياتي. وابتدأت انطلاقتهم من تلك المدة، فهؤلاء صبروا، وعلماء الإسلام كانوا أصبر وأصبر، أعني: مضوا إلى الأقاليم وجمعوا الحديث، منهم من كان يمشي حافياً إلى اليمن، إلى خرسان، إلى القاهرة، إلى الشام، إلى بغداد، إلى مكة، إلى المدينة يطلبون العلم.. يطلبون الحديث.. يسهرون.. تتقطع أقدامهم.. تلفحهم الريح.. يجدون المرارة والعنت، وهم كما يقول أبو الطيب وهو يزور ممدوحاً:

جَزَى اللهُ الْمَسِيرَ إِلَيْكَ خَيْرًا      وَإِنْ تَرَكَ الْمَطَايَا كَالْمَزَادِ

الشيخ أبو غدة ألف كتاب: صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل. وإنما نأتي بهذا لبيت أبي الطيب: (وخيرُ جليسٍ في الزمانِ كتابُ).

الذهبي ذكر أن أحد علماء الأندلس كرر في حياته صحيح البخاري سبع مئة مرة، والنيسابوري كرر صحيح مسلم مئة مرة، وابن إدريس ختم القرآن في حياته أربعة آلاف مرة، وابن سينا يقول: قرأت كتاب ما وراء الطبيعة للفارابي أربعين مرة، ما من مرة إلا اكتشف حلاً للفظ في الكتاب، والمزني قرأ كتاب الرسالة للإمام الشافعي يقول: قرأته خمس مئة مرة، ما من مرة إلا يظهر لي فائدة لم أكن استفدتها من قبل.

إنها الهمم.. إنه توقد الذهن.. إنها معرفة قيمة الحياة، ولذلك صرفوها في النافع المفيد، فقل لي بربك: مَنْ مِنَ الْجِيلِ الْآنَ يَكْرُرُ كِتَابًا خَمْسَ مَرَّاتٍ أَوْ عَشْرَ مَرَّاتٍ؟ بل تجد الواحد منهم عنده مكتبة، لكن كما يقول المثل الهندي: المرعى

أخضر والعنز مريضة، يعني: عندنا آيات بينات.. عندنا وثيقة سماوية.. عندنا قرآن لو خوطب به صخر لتفجع، ولو ألقى على حجر لتصدع، فكيف بإنسان من لحم ودم لا يستفيد من هذا الكتاب الخالد؟ سنة محمد عليه الصلاة والسلام.. الأحاديث النبوية الشريفة.. كلام أهل العلم.. التاريخ.. الأدب.. الثقافات الأخرى التي تؤيد الرسالة والتي فيها الخير؛ لأن «الحكمة ضالة المؤمن»، فهل أن لنا أن نعود إلى القراءة، إلى الاستفادة؟ إن العقل إذا لم يقرأ فسوف يبقى صغيراً محدوداً ولن يتطور أبداً، فالأمس كالיום كالفرد ما لم يقرأ؛ ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] فلم يطلب من النبي عليه الصلاة والسلام ولم يأمره أن يدعو إلا بهذا: الزيادة من العِلْمِ، يقول الأندلسي عن العلم:

هُوَ الْعَذْبُ الْمَهْنَدُ لَيْسَ يَنْبُو      تَصِيبُ بِهِ مَقَاتِلُ مَنْ أُرْدَتَا  
وَكَنْزٌ لَا تَخَافُ عَلَيْهِ لِصَاً      خَفِيفُ الْحَمْلِ يَوْجَدُ حَيْثُ كُنْتَا  
يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الْإِنْفِاقِ مِنْهُ      وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفَاً شَدِدْتَا

إلى آخر ما قال، ولذلك اعتنى السلف. فالإمام الشافعي لما سكن هو وأمه في غرفة في مكة، فقير يتيم مات أبوه، الشافعي هذا على مذهبه ما يقارب أربع مئة مليون في العالم الإسلامي، هذا الإمام الأعجوبة الذي مات وعمره ثنتان وخمسون سنة، إنه العبقريّة في منتهائها، صفاء الذهن، إنه الطموح كل الطموح، حتى يصف حياته يقول: إنه لا يأبه بالمال فكأنه التراب عنده، أعطاه هارون الرشيد كيساً من الذهب، فوزعه على الفقراء عند القصر ورمى بالكيس، وقال:

أَمْطَرِي لَوْلَا سَمَاءُ سَرَنْدِيبَ      وَفِيضِي آبِارَ تَكْرُورَ تَبْرَا  
أَنَا إِنْ عَشْتُ لَسْتُ أَعْدَمُ خَبْرَا      وَإِذَا مِتُّ لَسْتُ أَعْدَمُ قَبْرَا  
هِمَّتِي هَمَةُ الْمَلُوكِ وَنَفْسِي      نَفْسُ عَزْمِ تَرَى الْمَذَلَّةَ كَفْرَا

غفر الله للشافعي، كان يتيماً، ولد في فلسطين في عسقلان، هاجرت به أمه إلى مكة وهو مطَّلبٌ يلتقي مع رسول الله ﷺ في الجد الخامس، وسكنوا في غرفة واحدة، مجردة من كل تسهيلات العيش الآن، فكان يأخذ اللخاف والخشب والعظام ويكتب فيها الفوائد والحديث والشروح والأبيات ويجعلها في البيت، وأخذ البيت يضيق، قالت أمه: سنخرج للطريق، وكتبك واللخاف هذه والعظام سوف تحتل البيت، فسمع الكلمة فحفظ كل ما هو مكتوب في الخشب وفي الجرائد وعلى هذه اللخاف والحجارة حفظها، ثم أخرجها إلى الخارج. ويقول عن حفظه:

علمي معي حيثما يممّت يتبعني      قلبي وعاء له لا بطن صدوق  
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي      أو كنت في السوق كان العلم في السوق

وصدق، فسبحان الذي أعطاه، تعلم حتى الطب، تعلم الفراسة في اليمن، وتعلم الأدب، يقول: حفظت شعر هذيل، حفظت لثلاثين شاعراً من هذيل، وبقي يتعلم اللغة في هذيل، فصار أعجوبة الأعاجيب في فهم كتاب الله سبحانه وفهم سنة رسول الله ﷺ، وهو الذي ألف الرسالة وقعد لأصول الفقه، وردّ على المخالفين، ونصر الإسلام، ودحض شبه الملاحدة، فأسأل الله ﷻ أن ينور ضريحه أن يقدس روحه هو وإخوانه من أهل العلم.

ومقصودي: هذه الهمم الكبرى التي حظي بها أهل العلم، لماذا؟ لأن صاحبنا يقول:

(وخير جليس في الزمان كتابُ).

نأتي إلى أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي، وهو شيخ لابن الجوزي، وكان أعجوبة، ألف كتاب الفنون سبع مئة مجلد، هذا فقط في وقت الراحة، جمع أوراهاً



عند رأسه إذا أراد أن ينام، فالقلم جاهز والأوراق جاهزة مرتبة، فيكتب ما مر به في اليوم من خاطرة، أو فهم آية، أو قراءة، مثل المذكرات اليومية، قال: أفتيت فلاناً، وقال لي فلان، فسبحان الله الذي أعطاه هذا التوثيق، يجمع الأوراق، يسجل الملاحظات، ويسجل ما يفهم من الفنون أو ما يتذكر: في النحو.. في الأدب.. في التفسير.. في الفقه.. في علوم القرآن.. في الشعر.. في القصص.. في الأخبار.. في الاستنباط، فأخرج كتاب الفنون سبع مئة مجلد طبع منها الآن ما يقارب سبع مجلدات، والبقية سوف تطبع إن شاء الله، هذا في وقت الراحة!

يذكرون عنه في سيرته أنه كان يأكل الكعك، وأحياناً يأكل لقمة ويقرأ، فقل له: لماذا لا تأكل الخبز؟ قال: بين أكل الكعك والخبز مقدار قراءة خمسين آية، فترك هذا علماً كثيراً؛ لأنه عرف قيمة الزمن، قيمة الدقائق والساعات والأيام، فصرفها فيما ينفع؛ ولذلك تركوا أسماءهم، حضروا أسماءهم في ذاكرتنا وفي تاريخنا وفي أيامنا وليالينا بجهدهم وبعرقهم، ولذلك العظمة هي قطرات من المعاناة والجهد والعرق والبذل والعطاء، والفشل زخات من التسوية والإحباط والكسل والفشل.

وإذا بدأت في هذا المشروع مشروع الإنتاج والإبداع والعلم والمعرفة والثقافة وصار لك اسم، فسوف يأتي الجبناء والحساد يرمونك بأقواس النقد، فإذا فعلوا ذلك فاعلم أنك قربت أو أنك وصلت إلى بلاط العظمة وأن مدفعية الشرف أخذت تطلق إحدى وعشرين طلقة؛ احتفاءً بقدمك، كما يقول أبو الطيب:

وَإِذَا أَتَيْتَكَ مِنْ نَاقِصٍ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ

ويقول:

إِنِّي وَإِنْ لَمْتُ حَاسِدِي فَمَا أَنْكَرُ أَنِّي عَقُوبَةٌ لَهُمْ

يقول: الله عاقبهم بي؛ بسبب ما عنده من السطوع واللموع وتوهج البيان.

وقففة إجلال لكل أهل العلم والمعرفة الذين عاشوا مع الأدب، وعاشوا مع العلم، وعاشوا مع الكتاب؛ لأن أصحابنا يقول:

(وخيرُ جليسٍ في الزمانِ كتابٌ).

فيا الكتاب وصلوا إلى ما وصلوا إليه، لكن الكتاب النافع المفيد هو القرآن، وأول كلمة نزلت على رسولنا ﷺ هي «أقرأ..» [العلق: ١] فهل آن لنا أن نقرأ؟ أترك إجابة السؤال للجيل.



oboeikendi.com

## العدو المصابق

يقول أبو الطيب المتنبي:

وَمِنْ نَكِدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحَرِّ أَنْ يَرَى  
عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صِدَاقَتِهِ بُدُ

يقول: من شؤم هذه الحياة الدنيا الدنيئة  
أنها تلجئ كل حر وصاحب مروءة إلى أن يصادق  
العدو؛ لأنك تجد عدواً لا بد أن تصادقه؛ كي  
تقضي أمورك وتصلح حالك.

يقول ابن حزم الظاهري عن نفسه، وقد كان  
أبوه وزيراً في الأندلس، فأتى رجل من خصومه  
الأوليين عند أبيه، وكتب خطاباً، كتب فيه:

وَمِنْ نَكِدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

يقصد والد ابن حزم، والواجب ألا يذكره بهذا؛ لأن معناه أنك عدو لنا، لكننا نصادقك ونجاملك. فكيف تريد من إنسان خدمة وتريد منه مصلحة وأنت تكتب له هذا الكلام؟

قال: فقلب أبي البيت وقال:

وَمِنْ نَكِدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى صَدِيقًا لَهُ مَا مِنْ عَدَاوَتِهِ بُدُّ

يقول: كنت صديقنا، لكن الآن نعاديك؛ لأنك أظهرت لنا العداوة، ولكن هذا البيت للمتنبى من أبيات فائقة انتشرت في الناس وأثنى عليها الأديباء ووقف معها أهل الحكمة موقفاً.

والبيت في مجموعه يدل على أن الكثرة الكاثرة من الناس - ولو أظهروا لك الصداقة - ليست على بابها وليست على إطلاقها، ولأن المتنبى نفسه يقول:

وَمَنْ عَرَفَ الأَيَّامَ مَعْرِفَتِي بِهَا وَيَا نَاسٍ رَوَى رَمَحَهُ غَيْرَ رَاحِمٍ  
فَلَيْسَ بِمَرْحُومٍ إِذَا ظَفِرُوا بِهِ وَلَا فِي الرَّدَى الجَارِي عَلَيْهِمُ بَأَثِمٍ

وهذا خطأ، يقول: لو عرفتم الناس مثلما أعرفهم لروى أحدكم رمحه من دمائه. وهذا يدعو إلى سفك الدم، وهذا منهج خاطئ، وهذه نظرة تشاؤمية وليست تصالحية، والقرآن ينهى عن هذا المسلك، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] ويقول سبحانه: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] هذا هو المنهج الصحيح، لكنني أذكر بعض ما يناسب استشهاده على بيته.

## العصو الصديق

وابن صمادح أمير أندلسي جرب الناس في ولايته في الإمارة ونظم ثلاثة أبيات من أجمل الأبيات، يقول:

وزهدني في الناس معرفتي بهم      وطول اختباري صاحباً بعد صاحب  
فلم تُرني خلاً تسرني      مبادئه إلا ساءني في العواقب  
ولا قلت أرجوه لكشف ملامة      من الدهر إلا كان إحدى النوائب

أي: صار مصيبة ثانية. فهو يقول هذا الكلام بعد تجربة.

حتى إن امرأ القيس يقول:

أرى أم عمرو دمعها قد تحنراً      بكاءً على عمرو وما كان أصبراً  
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه      وأيقن أننا لاحقان بقيصرأ  
فقلت له: لا تبك عينك إنما      نحاول ملكاً أو نموت فنُعدراً  
فله دهرى ما أصاحبُ صاحباً      من الناس إلا خانني وتغيرأ

وهذه طبيعة الناس، حتى يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣] ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [سبأ: ١٣] ويقول: ﴿ وَإِن تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦]، فأكثرهم ليسوا على بصيرة من أمرهم، والقليل النادر هو الذي معك في الحق أو يقف معك في الأزمان.

حتى الحريري صاحب المقامات يقول في مرض الموت يوصي ابنه:

لا تغترز ببني الزمان ولا تقل      عند الشدائد: لي أخ وحميم

تقول: لي إخوان وأقارب، بعضهم يأتيك ويقول لك: رقبتي سداة، وإذا حصل شيء لا تراه، بل تجده يشمت بك. أو تجد آخر يتعشى معك ويشرب الشراب

ويعجبه. فيقول لك: الدم سداد. تفديك بأرواحنا، لكن إذا جد الجد فلا تجده  
أبدأ، ثم يقول لابنه موصياً:

جَرِبْتُهُمْ فَإِذَا الْمَعَاقِرُ عَاقِرٌ وَالْأَلُّ آلٌ وَالْحَمِيمُ حَمِيمٌ

يقول: جربتهم فإذا العاقر الذي يسمر معك أول من يعقرك، والآل القرابة  
مثل الآل وهو السراب الذي تجده في الصحراء، والحميم: الصديق المقرب، تراه  
كالحميم: الماء في أشد درجات غليانه.

حتى تجد الأحيمر السعدي يقول:

دَرَى اللَّهُ أَنِّي لِلْجَلِيسِ لِكَارُهُ وَتَبَغِضُوهُمْ لِي مَقْلَةٌ وَضَمِيرُ

يقول: الله يعلم أنني لا أريد أحداً أن يجلس معي، أحب كتابي..

عَوَى الذَّنْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذَّنْبِ إِذْ عَوَى وَصَوْتُ إِنْسَانٍ فَكِدْتُ أُطِيرُ

يقول: أنا لا أسأل أحداً شيئاً، وكان ذا نظرة اشتراكية.. حتى إذا أردت شيئاً،  
فلا أطلب إنساناً، بل أطلب الله الذي خلق الجمل، وإذا أردت شاة أخذت من  
الغنم؛ لأن الله الذي خلقها، هكذا يقول، وهذا خطأ، هو جاهلي، مجتمع الغابة  
التي لا تحكمها شريعة، يقول:

وَلَا أَسْأَلُ الْعَبْدَ الْفَقِيرَ بَعِيرَهُ وَيَعْرَانُ رَبِّي فِي الْبِلَادِ كَثِيرُ

فهذا البيت من أجمل ما قيل، حتى قال الحجاج بن يوسف الثقفي الظالم،  
للشعبي العالم الكبير: أين أنت يا شعبي؟ يوم الفتنة التي بين الأشعث وبين  
الحجاج وعبد الملك، وقد كانوا تقموا عليه، لكنه أتى بالسحر الحلال والعذر  
المقبول، فانطلى عليهم العذر فتركوا له المجال في نفع الناس، فقال: كنت أيها  
الأمير في مكان حيث يقول الشاعر:

عَوَى الذَّنْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذَّنْبِ إِذْ عَوَى وَصَوْتُ إِنْسَانٍ فَكِدْتُ أُطِيرُ

ولذلك كانوا يحذرون من أن تفتح المجال لكل من هب ودب أو تثق بكل أحد، حتى يقول الحميدي صاحب الجمع بين الصحيحين وهو عالم أندلسي:

لقاء الناس ليس يفيئُ شيئاً      سوى الإكثارِ من قيلٍ وقيلٍ  
فأقللُ من لقاءِ الناسِ إلاَّ      لأخذِ العلمِ أو إصلاحِ حالٍ

أما أن يبقى الإنسان وكأنه في السوق، كل من لقيه أعطاه من وقته.. أعطاه من جهده.. وذهب معه، وتحدث معه، وأخذ من أخابره.. العمر محسوب، ينبغي على الإنسان أن يعرف من يجالسهم، أو يستفيد منهم، أو يمكن من بيني معهم مشروعاً، أو من يستثمر معهم عملاً نافعاً، أما أناس يضيعون الزمان، ويوصلونك إلى بعض الذنوب والخطايا، ويجرونك إلى ما لا تحمد عقباه، فهم جلساء سوء يجب أن يجتنبوا، ثم إن الحسد في الناس منتشر، حتى إن المتنبئ نفسه يقول:

سوى وجع الحسادِ داوٍ فإنه      إذا حلَّ في قلبٍ فليسَ يحولُ  
ولا تطمئنُ من حاسدٍ في مودةٍ      وإن كنتَ تبديها لهُ وتميلُ

حتى ولو أظهرت له البشاشة والمحبة وتحاول أن تستصلحه، فقلبه لا يستطيع أبداً؛ لأنه التفت عليه الحسد وأظلم بالحسد، فهو لا يستطيع أبداً، حتى ولو حاول أن يجاملك، فلن يستمر على هذه المجاملة. يقول الأحوص:

ما أكثرَ الناسِ عندي بل ما أقلهم      الله يعلمُ أنني لَم أَقلُ فندياً  
ما قلتُ كذباً، ما قلتُ إلا الحقيقة.

إنني لأفتحُ عيني حينَ أفتحها      على كثيرٍ ولكن لا أرى أحداً

حتى في الحديث الصحيح يقول عليه الصلاة والسلام كما في البخاري: «الناسُ كإبلٍ مئةٍ لا تجدُ فيها راحلةً» الناس مثل الإبل المئة، قطع ذود من

الإبل أمامك، لكن لا راحة تستطيع أن تتركبها وتحمل عليها أغراضك، فتجد الناس كثيرة أعدادهم، طواير وجماعات كثيرة، لكن قل أن تجد الرجل الحصيف العاقل المؤمن الصادق المنيب، يقول ابن دريد:

وَالنَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمْ كَوَاحِدٍ      وَوَاحِدٌ كَالْأَلْفِ إِنْ أَمَرَ عْنَا

فدل على أن الناس لا يُعْتَر بظواهرهم.

ونعود إلى بيت المتنبي:

وَمِنْ نَكِدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى      عَدُوَّ لَهُ مَا مِنْ صِدَاقَتِهِ بُدُ

فإن الإنسان في الحياة يبتلى بأشياء، فالمؤمن مبتلى؛ لأن هذه الدار دار مكدرة، حتى لا يصفو فيها أحد، فلا بد أن يمزج حلوها بالمر، وسعدها بالشقاء، وراحتها بالتعب، فهي دار تمزج بين الطيب والخبيث، وبين السعادة والشقاوة، ثم في الآخرة تجمع السعادة والطيب والخير والراحة في الجنة، والشر والخبث والعذاب في النار أعاذنا الله من ذلك، فالمتنبي بعدما عاش وجرب الحياة يقول:

ومن نكد هذه الدار وشؤمها أنا أحياناً نضطر إلى أناس ونعرف أنهم أعداء لنا، لكن لا بد أن نتخذهم أصدقاء؛ لتقوم مصالحنا وتسهل أمورنا؛ حتى إن زهيراً يقول:

وَمَنْ لَمْ يَصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ      يَضْرُسُ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنْسَمٍ

يقول: إذا لم تدار فلن تستطيع أن تقوم بجميع أمورك.. فأحياناً يكون هناك إنسان تافه وحقير، لكنه قد يقف لك وقد يؤذيك، حتى إنه يقول: إن البعوضة تدمي مقلة الأسد.

فابن الجوزي يقول: لا تحتقر أحداً، لا تحاول أن تصنع بينك وبين أحد عداوة؛ لأنه يأتي يوم من الأيام يتربص بك الفرصة، فيوقعك في مشكلة أو داهية دهية، فحاول أن تبني جسور المودة مع الناس، وإذا أتتك كلمة معادية من عدو، فاجعل

مكانها كلمة لطيفة ولينة، كما هو منهج القرآن: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] يعني: يأتيك أحياناً إنسان هائج مائج يقول: أعرف أنك تتربص بي، وأعرف أنه كذا وكذا. فقل: لا، ليس الأمر كما بلغ، فبيننا وبينك من الوفاء ومن المحبة، اتق الله يا أخي، فنحن بيننا جسور مودة، فلا بد من أن تقلل من العداوة وتجتث هذه العداوة ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن ت لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

يقولون: إن معاوية بن أبي سفيان إنما حكم الرجال بالحلم وبالمنهج اللين والرفق الذي ورثه عن معلم الخير عليه الصلاة والسلام.

فإذا بلغك عن أخيك شيء تكرهه فالتمس له العذر جهدك، فإن لم تجد له عذراً فقل في نفسك: لعل لأخي عذراً لا أعلمه.

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ أَخُوهُ الْمُسْلِمُ فَلْيُضْبَلْ عُدْرَهُ مَا لَمْ يَعْلَمْ كَذِبَهُ».

وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا تَلْمُ أَخَاكَ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْعُدْرُ فِي مِثْلِهِ.

وقال الحسن بن علي: لو أن رجلاً شتمني في أذني هذه واعتذر إلي في أذني الأخرى لقبيلت عذره.

قال الأحنف: إن اعتذر إليك معتذر فتلقه بالبشر. وقال الشاعر:

يلومني الناس فيما لو أخبرهم      بالعدر مني فيه لم يلوموني

وقال آخر:

أقبل معاذير من يأتيك مُعتذراً      إن برّ عندك فيما قال أو فجرأ  
فقد أطاعك من يرضيك ظاهره      وقد أجلك من يعصيك مستترا

واعلم أنه لا مبراً من سهو وزلل، ولا سليم من نقصٍ أو خلل، ومن رام سليماً من هفوة، والتمس بريئاً من نبوة، فقد تعدى على الدهر بشططه، وخادع نفسه بغلطه، وكان من وجود بعيته بعيداً وصار باقتراحه فرداً وحيداً.

وقد قالت الحكماء: لا صديق لمن أراد صديقاً لا عيب فيه.

وقيل لأنوشروان: هل من أحدٍ لا عيب فيه؟ قال: من لا موت له، وإذا كان الدهر لا يوجد ما طلب، ولا ينيله ما أحب، وكان الوحيد في الناس مرفوضاً قصياً، والمنقطع عنهم وحشياً، لزمه مساعدة زمانه في القضاء، ومياسرة إخوانه في الصّفح والإغضاء.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى أمرني بمُدارةِ الناسِ كما أمرني بأداءِ الفرائضِ».

وقال بعض الأدباء: ثلاث خصالٍ لا تجتمع إلا في كريم: حسن المحضر واحتمال الزلة وقلّة الملل.

قال ابن الرومي:

وودك مقبولٌ بأهلٍ ومرحّبٍ	فعدرك مبسوطٌ لذنبٍ مقدّمٍ
لديّ مقامُ الكاشحِ المتكذّبِ	ولو بلغتني عنك أذني أقمّتها
خليلاً إذا ما القلبُ لم يتقلّبِ	فلستُ بتقليبِ اللسانِ مصارماً

فكأن قول المتنبّي السابق إجماع بين الشعراء وأهل الحكمة، حتى يقول بعضهم:

فسدَ الناسُ والزمانُ جميعاً      فعلى الناسِ والزمانِ السلامُ

فمع من تصلح العلاقة؟ مع الواحد الأحد، حتى إن بعض الشعراء يقول، وبعض الأبيات هي لأبي الطيب، وهي متنازع فيها بين أبي فراس وأبي الطيب المتنبّي وبين رابعة العدوية، فيقول مخاطباً رب العزة سبحانه:

فليتك تحلّو والحياةً مريرةً      وليتك ترضى والأندامُ غضابُ  
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ      وبينني وبين العالمين خرابُ  
إذا صحّ منك الدودُ فالكلُّ هينٌ      وكل الذي فوق الترابِ ترابُ

فكل من تشاهده الآن فوق التراب هو في الحقيقة تراب، الناس.. الأعيان..  
الوزراء.. الأغنياء.. الأثرياء.. العلماء.. المفكرون.. كلهم تراب يمشون على  
تراب، ما معك إلا الواحد الأحد.

وأنا ضد النظرة التشاؤمية التي غلفها بعض الشعراء على الناس جميعاً،  
نقول: لا، ما زال الأخيّار والأبرار وأهل الوفاء وأهل الأمانة، لكن ابحت عنهم أنت،  
أما أن تثق بكل أحد وأن تعدّ كل من أتاك ولقيك وسلم عليك صديقاً فهذا ليس  
بالمنهج الصحيح.

حتى فولتير الكاتب المفكر الفرنسي يقول: اللهم احمني من أصدقائي، أما  
أعدائي فسوف أتولى أمرهم.

فهم أحياناً ما لا تعلم بهم. كما يقول القائل:

احـبـبـتـكـ مـرّة      واحـبـبـتـكـ ألفـ مرّة  
فـلـربّـمـا انـقـلـبـ الصـديـقُ      فـكـانـ أعلـمـ بـالمـضـرّة

يعرف من أين تلدغ، ويعرف نقاط الضعف فيك ويعرف المداخل، فيضرب  
ضربته، أما العدو أحياناً فتخفى عليه نقاط الضعف فيك، ولهذا يقول الطغرائي:

وإنما رجل الدنيا وواحدُها      من لا يعول في الدنيا على رجل

يقول: إن الرجل الثابت القوي هو الذي لا يعول على أحد، إنما يعتمد بعد الله  
على نفسه، فهو يكون نفسه، أما أن يكون الإنسان تكلة على الناس ويعتمد عليهم

ولم يدرب نفسه بعلم أو بمهنة أو بحرفة أو بإبداع أو بإنتاج فهذا فاشل، من يعتمد على الناس فاشل، اعتمد على الواحد الأحد، ثم كون نفسك: «أحرص على ما ينفعك» كما قال سيد الخلق ﷺ في صحيح مسلم.

وينبغي أن نعتني بشيء في الصداقة مع الناس، لا نذهب وراء بعض الشعراء الذين ينظرون بنظرة سوداوية للمجتمع، كلهم فاسدة.. كلهم خونة.. كلهم غشاشون.. ليس بصحيح، بعض الناس تجده إذا حصل له عداوة يقول: أهل القرار والمسؤولون هؤلاء ظلمة، والتجار يتلاعبون، والدعاة مدلسون ملبسون على الأمة، والعلماء غشاشون. فهذا في الحقيقة مريض، يقول المتنبّي:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مَرٌّ مَرِيضٍ      يَجِدُ مُرّاً بِهِ الْمَاءِ الزَّلْزَلَا

إنسان مريض وفمه يسيل صدى وقيحاً ومرّاً، يشرب ماء عذباً زلالاً، قال:  
هذا الماء مر، قلنا له: فمك المر، أما الماء فعذب.

يقول البوصيري:

قَدَّتْ تَكْرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمْدٍ      وَيَتَكَرَّرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمٍ

الرمد في العين وليس في الشمس. فالمشكلة أصلاً في نفسية الإنسان، إذا اندثرت صار ينظر إلى الآخرين بما ينظر إلى نفسه، حتى يقول الشمري:

يا حسين خلك من خيار الخويين      ترى الخوي يا حسين مثل الأمانة  
ما يستشك يا حسين كود الرديين      والأتري الطيب وسيع بطانته

يعني: أن الطيب دائماً ينظر للناس ويقول: فيهم خير، لكنه لا يسرف أيضاً في هذه الخيرية ويكون ساذجاً، لكن ينظر بنظرين وباعتدال، يعرف أن هناك خيراً وهناك سوء، وأن هناك أخياراً وهناك أشرار، هذا خلق الله سبحانه وتعالى، ولذلك يقول بشار بن برد:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَاراً عَلَى الْقَدَى      ظَمِئَتْ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهُ ١٩

يقول: إذا أنت لم تصبر على الزلة وتعفو عن الخطيئة وتصفح فلن تستطيع أن تعاش الناس، فاصبر وجامل.

وَمَنْ ذَا الَّذِي تَرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا      كَفَى الْمَرْءَ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهُ

تريد إنساناً كاملاً معصوماً ليس فيه خطأ لا تريد صديقاً تشترط فيه أن يكون صادقاً.. أميناً.. كريماً.. وفياً.. حافظاً.. تالياً لكتاب الله.. باراً بالديه.. متفانياً.. بذولاً.. نصوحاً.. لن تجد هذا، لا يكتمل هذا إلا في النبي ﷺ، فهو المعصوم ﷺ، أما في باقي الناس فتعرف وتنكر.

ولهذا ينبغي أن تناضل في الجوانب الحسنة، وإذا غلبت الجوانب الحسنة على الجوانب السيئة فهذا هو الشريف المقدم، إذا غلبت محاسن الإنسان على مساوئه فهذا المطلوب، أما إذا غلبت مساوئه فاجتبه، فهذا يقول:

(كَفَى الْمَرْءَ نُبْلًا) يكفيك شرفاً أن يعد الناس معاييبك، يقولون: فيك كذا وكذا.. فمعناه أن لديك محاسن كثيرة، ولذلك ولقلة المساوئ التي فيك عدّها عليك الناس، أما بعض الناس من كثرة مساوئه فيقول الناس: كم تعد وكم تترك؟ لا ماذا ستأخذ وماذا ستبقي؟ تارك للصلاة.. عاق لوالديه.. بخيل.. جبان.. شرس.. غدار.. خوان.. تعود بالله من ذلك، فهذا هو الشرير، والناس شهداء الله في أرضه كما قال عليه الصلاة والسلام: «أنتم شهداء الله في أرضه»، لما مروا بالجنّازة وأثنى عليها الناس خيراً قال: «وجبت» يعني: الجنة، وأثنوا على جنازة أخرى شراً فقال: «وجبت» يعني: النار.

يقول النابغة الذبياني في قصيدته البائية الماتعة الرائعة التي يخاطب بها النعمان:

ولمست بمستبقٍ أخاً لا تلمه      عدى شعثٍ أي الرجال المهذبُ  
فإن بلغ الواشون عني وشايةً      لمبلغك الواشي أغش وأكذبُ

يقول: أبلغك عني الوشاة وهم كذابون وغشاشون. بعد أن قال: (أي الرجال المهذب) أي: من هذا الذي هو سالم من العيوب.

مَنْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَطُّ      وَمَنْ لَهُ الْحَسَنَى فَقَطُّ  
﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

من الذي ما كبا جواده ونبا سيفه؟ من الذي لم يخطئ؟ من الذي ليس فيه عيب؟ الذي ليس فيه عيب هو الله وحده سبحانه وتعالى، الواحد الأحد الذي مدح نفسه قبل أن يمدحه المادحون، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، أما الإنسان الذي خلق من الطين ومن الماء المهين فخطأء.

أبونا خلق من التراب، لذلك لا ينبغي للإنسان أن يفتخر ويشمخ بأنفه، إذا افتخرت ففكر في أصلك وأنه من التراب، ثم من ماء مهين، وبعد ذلك تسحب إلى المقبرة وتجرد من الملابس والساعة والقلم والفترة (الشماع) .. ويسحب ويلف في قطعة قماش، ويسحبونه إلى التراب، ويدخل إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، ولذلك يقول الشاعر:

تريدُ مهذباً لا عيبَ فيه      وهل عودٌ يفوحُ بلا دخانٍ؟

ضع عود الطيب من أركى أنواع الطيب، فإنه سيفوح منه دخان، وهذه طبيعة الإنسان، لا بد أن يكون فيه نقص، لا بد أن يكون فيه تقصير في جانب من الجوانب، لا يوجد في العالم أحد مثلاً يكون ذكياً.. أريباً.. داهية.. شجاعاً..

وفياً.. باراً.. مصلياً.. ذاكراً.. هذا لا يكون، حتى العلماء الأجلاء لم يستولوا على كل الفضائل جميعاً، إنما استولى عليها جميعها سيد الخلق عليه الصلاة والسلام، والله جل وعلا هو الذي جمع له ذلك، فزكى قلبه، وزكى سمعه وبصره، وظهر طريقه، وصحح منهجه، وتولاه وحفظه ورعاه وسدده وعصمه، هذا هو الوحيد عليه الصلاة والسلام. أما البقية فلا بد أن نعترف بأننا بشر.

فلكي لا يصاب الإنسان بإحباط أمام ما يواجه من النقد أو ما يواجه من عداوات لا بد من أن يتسلح بالصبر والثقة بالله ﷻ حتى إن أحد العلماء يقول:

فَلَمْ أَرُ فِيهَا سَاعِنِي غَيْرُ شَامِتٍ      وَلَمْ أَرُ فِيهَا سَرْنِي غَيْرُ حَاسِدٍ

يقول: كلما ساعني شيء ما وجدت الإشامتاً، وكلما سرني ما وجدت إلا حاسداً. ولكن هذا الحكم ليس على إطلاقه ولا يقبل دائماً، هناك أناس إذا عثرت أو ساءك شيء وقموا وتضامنوا وغضبوا وندموا وتأثروا وبكوا، وهناك أناس أيضاً إذا سرك شيء فرحوا واستبشروا وأحبوا لك الخير، لكن هم يشكون من كثير من الشرائع في المجتمع أنهم يشمتون بالنكبة وأنهم يحسدونك على النعمة.

حتى عروة بن الزبير رضي الله عنه خرج من المدينة، قالوا: «ما لك خرجت؟ قال: مجالسكم لاهية، وأسواقكم لاغية، وما بقي إلا شامت بمصيبة أو حاسد على نعمة».

فغالب الناس على هذه الشاكلة.

ولذلك المتنبّي يصل به العمر إلى أن يقول لنا:

(وَمِنْ نَكِدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ..)

وانظر إلى اختيار الكلمات.. نكد.. أعجوبة هذا الأسطورة الشاعر.. يختار الكلمات مثل نسج الدر، فيؤلف بينها، يختار الحبة اللامعة الغالية الثمينة، فيضعها واسطة العقد.

ما قال: من تعب الدنيا، أو من سأم الدنيا.. أو من ملل الدنيا..

ولم يقل: على المرء، بل: على الحر؛ لأن الحر دائماً فيه صفات الشهامة والمرورة، ومع ذلك أحياناً يذل ويهان، وأحياناً تجد في الناس من لا يؤبه بهم، وإذا هم يتطاولون ويشمخون، فتضطر لنكد هذه الدنيا وشؤم هذه الدنيا أن تصانعهم وتظهر لهم الصداقة، وأحياناً تذهب إلى إنسان ليس له قيمة، فلا بد أن تكنيه. كيف حالك يا أبا فلان.. الله يبيقيكم لنا، وأنتم ما شاء الله نفع الله بكم الناس جميعاً.. وهو في الحقيقة لم ينفع الله به أحداً، بل هو نكد على العباد، وهو عقوبة على الأمة وعقوبة على العباد والبلاد، لكن لكي تقضي أمورك لا بد من هذه المصانعة.

وخير من ذلك كله: ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦] بكلمة.. بحركة طيبة وقورة.. بتصرف سليم.. حتى يفهم منك أنك تريد أن تطفئ الشر منه، ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، «ما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه».



## الناجح مسود

يقول أبو الطيب المتنبي يمدح كافوراً:  
عدوك مذمومٌ بكلِّ لسانٍ  
ولو كان من أعدائك القمرانِ  
ولله سرٌّ في علاك وإنَّما  
كلامُ الورى ضربٌ من الهديانِ  
في قصيدة طويلة شاهقة، يرى الواحدي  
أنها من أجمل قصائد المتنبي على الإطلاق وأنها  
من أكثرها مدحاً في كافور، ففي مطلع القصيدة  
يقول:

(عِدْوُكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانٍ) يقول: إن من عاداك يا كافور، يذم من الناس؛ فهو مخطئ؛ لأنه يتجرأ على صاحب مجد وصاحب مكرمات ورجل له مثل قامة كافور. فيذم من كان عدوك حتى لو عاداك القمران: الشمس والقمر، وإنما يقال لهما: القمران تغليباً، مثلما يقال: العمران، لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فهذا من باب التغليب، يقول: لو عاداك الشمس والقمر فهما مذمومان. ثم يقول: إنه سبحانه وتعالى أعطاك هذا الحظ لسرراً رآه سبحانه وتعالى فيك.. وهذا من المجاملات الشاعرية والمبالغات. وإن الذين ينالونك من الأعداء إنما يقولون هذيان الكلام الذي لا حقيقة له، وهذا يدل على أنه ينبغي لصاحب المجد أو المكانة ألا يأبه ولا يعبأ بكلام الحساد ولا بكلام الناس، وقد أكثر الناس في هذا الباب، وخير من ذلك أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١] فالكلام الذي يأتي به الحساد إنما هو أذى لا يضر المصلح إذا استمر في مكانته، بل كما يقول أبو تمام:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أَسَاحُ لَهَا لِسَانِ حُسُودٍ

وقصيدة المتنبي هذه جميلة في أبياتها؛ لأن كافوراً قتل قائداً شجاعاً اسمه شبيب، خرج عليه في مصر، وكان شبيب هذا من أشجع الناس، ولكنه لما حضر المعركة أته نوبة كالصرع، فسقط السيف من يده وفارقه فقلب وانهمز، فانتصر عليه كافور، فأثنى المتنبي يمدح كافوراً ويصف هذه الواقعة مع شبيب، قال:

بِرَغْمِ شَبِيبٍ فَارَقَ السِّيفُ كَفَّهُ وَكَأَنَّا عَلَى الْعِلَاقِ يَصْطَحِبَانِ

السيف وشبيب دائماً أخوان شقيقان؛ لأنه لما أتى وصرع في المعركة يقول: أصابته ضربة شمس وهو يقاتل كافوراً، كان من أشجع الناس كالأسد الهصور، لكنه قضاء الله وقدره، فأنته فأصابه كالإغماء وكالصرعة، فسقط السيف من يده، ثم أغمى عليه، فسقط فذبح، قال:

كَأَنَّ رِقَابَ النَّاسِ قَالَتْ لِسَيْفِهِ: رَفِيقُكَ قَيْسِيُّ وَأَنْتَ يَمَانِي

لأن شيبياً قيسياً والسيف يمانى، وقيس واليمن بينهما إشكالات وبينهما عداوات  
يفترقان ولا يتفقان، وهذا من البلاغة ومن التزييق اللفظي ومن جماليات الأدب.

وهذا البحر الذي ينظم عليه هو من أجمل البحور، حتى ذكر ابن الوزير  
محمد بن إبراهيم العالم اليمنى بيتاً فريداً في العواصم والقواصم لأحد الشعراء  
على هذا البحر، يقول:

وَمَنْ كَمَلَتْ فِيهِ النَّهْيُ لَا يَسْرُهُ نَعِيمٌ وَلَا يَرْتَاعُ لِلْحَدَثَانِ

يقول: إذا كمل عقل الإنسان فإنه بعد ذلك لا يسره النعيم؛ لأنه يعرف أنه سوف  
ينقضي نعيم الدنيا وكل شيء له نهاية. ولا يتأثر للمصائب التي تقع. فلا السرور  
يستخفه ولا الفرح يطير به، وأيضاً المصائب لا يجزع منها؛ لأنه أصبح عاقلاً  
ويعرف الدنيا ومجرباً لها، ليس كالمطائشين من الشباب أو خفيفي العقل، فتجدهم  
إذا أتاهم شيء مفرح فرحوا وطاروا به فرحاً، وتجدهم إذا أتت المصيبة جزعوا.

وهذا البحر قد نظمت عليه قصيدة، منها:

سَلَا الْقَلْبُ عَنْ غَيْدِ صَفْتِ وَحِسَانِ وَأَهْمَلْ ذَكَرَ الْمُنْحَنَى وَعُمَانِ  
وَمَا عَادَ يَلْهِيَنِي الصَّبَا بِأَرْبِجِهِ وَلَوْ فَاحَ بِالرَّيْحَانِ وَالنُّفْلَانِ  
وَحَظَّ بِرَأْسِي الشَّيْبُ لَوْحَةَ عَاشِقٍ يَقُولُ: احْنَرُونِي أَيُّهَا الثَّقَلَانِ

والشعراء يرتاحون لهذا البحر؛ لأن فيه من الجمال الأخاذ الفاتن الخلاب  
الذي لا يدركه إلا أهل البيان، حتى إن عروة بن أذينة قال:

جَعَلْتُ لِعِرَافِ الْيَمَامَةِ حَكْمَهُ وَعِرَافِ نَجْدٍ إِنْ هَمَّا شَفِيَانِي

يعني: من الحب والعشق.

فَوَاللَّهِ مَا مِنْ رَقِيَّةٍ يَعْلَمُهَا  
وَلَا شَرِيَّةٍ إِلَّا بِهَا سَقِيَانِي  
فَقَالَا: شِفَاكَ اللَّهُ، وَاللَّهِ مَا لَنَا  
بِمَكْنُونِ مَا تَحْوِي الضُّلُوعُ يَدَانِي

وللبحتري قصيدة على هذا البحر يقول:

كَأَنَّ رَقِيْبًا مِنْكَ يَرَعَى مَسَامِعِي  
وَأَخْرَى يَرَعَى مِنْطَقِي وَجَدَانِي

والقمران كما قلت الشمس والقمر، ويسميان الفرقدين.. حتى يقول عمرو بن معدي كرب الزبيدي:

وَكُلُّ أَخٍ مَفَارِقُهُ أَخُوهُ  
لَعَمْرُؤِ أَبِيكَ حَتَّى الضَّرْفُ دَانِي

يعني: حتى القمر والشمس سوف يتفارقان، وقد صح أنهما يكوران، ثم يرمى بهما في نار جهنم. وقوله السابق:

(وَإِنَّمَا كَلَامُ الْوَرَى ضَرْبٌ مِنَ الْهَدْيَانِ) أن من له مجد ومكانة يسب دائماً.

قيل: من هو السيد؟ قال: من إذا غاب اغتابوه، وإذا حضر مدحوه، أو: إذا حضر هابوه وإذا غاب سبوه.

فتجد الشجاع وصاحب المنزلة العالية ترك له حساداً، إذا غاب وقعوا في عرضه، فإذا حضر قالوا: مرحباً.. أهلاً أبا محمد.. نحن اليوم مرتاحون.. شرفتنا.. لأنه مهيب وله مكانة، ولكن ما إن يغادر حتى يلدغوه بسياط النقد، أما التافه فيقول فيه أحدهم:

وَشَكْوَتٌ مِنْ ظَلَمِ الْوُشَاةِ وَلَنْ تَجِدَ  
ذَا سُؤْدَدٍ إِلَّا أُصِيبَ بِحُسْدٍ  
لَا زِلْتِ يَا سِبْطَ الْكِرَامِ مُحْسَدًا  
وَالْتَاْفَهُ الْمَسْكِينُ غَيْرُ مُحْسَدٍ

لأن الصفر لا يؤبه به، يحضر المجلس أو يغيب فالأمر سيات، ليس عنده كرم ولا أخلاق ولا تواضع ولا علم ولا يصلح بين الناس، فهو سواء إن حضر أو غاب، لا

يدرون به أهو ساكن في القرية أم لا، إن حضر المجلس.. إن سافر.. إن ارتحل..  
فهذا صفر، ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١].

وقد تعرض الأخيار على طول التاريخ للسب، حتى إن موسى عليه السلام  
كلم ربه فقال: يا رب، أسألك أن تكف السنة بني إسرائيل فلا يتكلموا ويسبوني  
إذا غبت، قال الله سبحانه: يا موسى، إني خلقتهم ورزقتهم وإنهم يسبوني  
ويشتمونني! ما اتخذت ذلك لنفسي.

وكما جاء في صحيح البخاري قال: «يسبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك،  
ويشتمني وما ينبغي له ذلك، أما سبه إياي فإنه يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل  
والنهار كيف أشاء، وأما شتمه إياي فيقول: إن لي صاحبة وولداً، وأنا الله لا إله إلا  
أنا لم أتخذ صاحبة ولا ولداً؛ لأنه أحد فرد صمد.

فالشاهد: الواحد الأحد الذي له صفات الكمال والجمال والجلال.. الفرد..  
الصمد.. الحي القيوم.. ويسب من الخليقة الناقصة المذنبه الجاحدة، إلا من  
رحم ربك، حتى يقول أحد الشعراء:

وَتَرَى الْكَرِيمَ مُشْتَمًا لَمْ يَقْتَرِفْ شَتْمَ الرِّجَالِ وَعَرَضُهُ مَشْتُومٌ

فالناس يقعون في عرض الكرماء، ولكن الكريم كالنخلة الباسقة الطويلة  
السامقة، التي تطلع بالتمر وبالرطب، فإذا تناولتها بالحجارة ردت عليك رطباً  
وتمرأ، وهذا شأن الأخيار على منهج: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ  
وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] وهنا علم أن الناس إنما يقعون فيمن  
له شهرة، لكن الصحيح أن من كانت محاسنه أكثر فهو العدل الثقة الثبت؛ وأما  
من كثر سابه له وكثرت نقائصه وكثرت معائبه، فهو الذي نزل عن مرتبة العدالة  
والثقة، وإلا فلا يسلم من العيب أحد في الناس، ولكن الذي يجتهد ويواصل  
ويستثمر وقته وماله وجهده في الخير، فإنه لا يعدم من الحاسد، وكلام الحاسد

يسقط أصلاً؛ لأنه يتكلم بغير عدل، يقال: أظلم الناس هو الحاسد؛ فإنه يحكم عليك لا لك، ويحكم قبل أن يسمع الدعوى وقبل أن يستمع من الشهود، وإذا ذكرت له فإنه يسرع في قدحك وفي إنزالك من قدرك، ويرفعك الله بسبب نيل الحاسد لك.

ولهذا فهو يسلي كافورًا، ويظهر أن كافورًا بدأ يتعرض لنقد وتجريح وتشهير من الناس، فمثلما يقول حاتم:

وكلمة حاسدٍ من غير جرمٍ      سمعتُ فقلتُ مُرِّي فأنفذي نبي  
وعابوها عليّ ولم تعبني      ولم يند لها أبداً جبي نبي

فالحاسد أبداً هو عدو النعمة، حتى يقول الشاعر:

هُمَّ يَحْسُدُونِي عَلَى مَوْتِي فَوَاسِفًا      حَتَّى عَلَى الْمَوْتِ لَا أَخْلُو مِنَ الْحَسَدِ

فهو يقول: والله لو أخبرت الناس أنني سأموت لحسدوني على الموت، قالوا له: ليس بصحيح. قال أحدهم: رأيت في المنام - وهو لم ير في الحقيقة - أن فلاناً الوزير صلب، وأن فلاناً الغني التاجر الثري صلب، وأنتي صلبت معهم، فقال الجلوس: أنت تصلب معهم؟! أنت أقل وأذل من أن تصلب مع الوزير ومع الثري، فقال:

هُمَّ يَحْسُدُونِي عَلَى مَوْتِي فَوَاسِفًا      حَتَّى عَلَى الْمَوْتِ لَا أَخْلُو مِنَ الْحَسَدِ

ولذلك فأبو الطيب دائماً يذكرك بهذه ويقول:

سُوَى وَجَعِ الْحَسَادِ دَاوٍ فَإِنَّهُ      إِذَا كَانَ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحْوُلُ

يقول: حاول أن تدأوي كل شيء تستطيع أن تدأويه.. فالخيال قد تشجعه بعض النصوص، تستطيع أن تدأوي مثلاً الغضبان بأن ترضيه.. الذي هجرك لأمر يمكن أن يزول عن هجره وقطيعته لك، إلا الحاسد.

وَلَا تَطْمَعَنَّ مِنْ حَاسِدٍ فِي مَوْدَةٍ      وَإِنْ كُنْتَ تَبْدِيهَا لَهُ وَتُنِيلُ

تحتضنه وتعانقه وتدعوه وتكرمه وتهدي له.. ولكنه لا يزداد إلا غياً؛ لأنه يريد شيئاً واحداً وهو أن تزول عنك النعمة.

حتى يقول أحد الشعراء:

أَعْطَيْتُ كُلَّ النَّاسِ مِنْ نَفْسِي الرِّضَا      إِلَّا الْحَسُودَ فَإِنَّهُ أَعْيَانِي  
مَا لِي لَهُ ذَنْبٌ عَلَيَّ عَلِمْتُهُ      إِلَّا تَتَابَعُ نِعْمَةَ الرَّحْمَنِ  
وَأَبَى فَمَا يُرْضِيهِ إِلَّا ذِلَّتِي      وَذَهَابَ أَمْوَالِي وَقَطَعَ لِسَانِي

يقول: ليس هناك مصالحة معه؛ لأن الحسود لا يمكن مصالحته، كما يقول القائل:

اصْبِرْ عَلَيَّ كَيْدِ الْحَسُودِ      فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ  
فَالنَّارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا      إِنَّ لِمَ تَجِدَ مَا تَأْكُلُهُ

فهو ظالم في ثوب مظلوم، يحترقهما وغماً، بعض الناس مركب على الحسد، إذا رأى مالا لإنسان حسده، إذا رأى ذا علم حسده، إذا رأى فصيحاً.. وإذا رأى رجلاً جميلاً.. وإذا رأى رجلاً مشهوراً.. وإذا مدح الناس إنساناً فهو عدو.. يقول ابن تيمية: بعض الناس كالذباب لا يقع إلا على الجرح.

لا يحب الجوانب المشرقة، يفرح إذا جاءت العثرات، حتى إذا انظر في الأسهم ورأى الأحمر حمد وقال: لك الحمد يا رب، فإذا جاءت وهي خضراء مرتفعة قال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

فعنده التجار غشاشون.. والعلماء مدلسون.. والدعاة ملبسون.. والمسؤولون ظلمة.. فهو الذي يحب العيوب ويحب الأخطاء، والرجل إنما ينظر دائماً إلى الجوانب المشرقة ولا ينظر إلى الجوانب المظلمة في حياة الناس.

والمتنبي لما قال:

عسوكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانٍ      وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ الْقَمَرَانِ

ذكرني هذا البيت بقصيدة على البحر والقافية، يقولون: كان ابن الأعرابي النحوي اللغوي المشهور الأديب يدرس في مجلس الحديث، وكان الناس في مسجد كبير، وهناك طلاب في آخر المسجد، طالبان يتكلمان في أثناء الدرس، قال: اسكتا، ثم قال: من أين أنتما؟ قال أحدهما: أنا من الأندلس قدمت بغداد؛ لطلب العلم، يعني: أصبحا صديقين، وقال للآخر: من أين أنت؟ قال: أنا من خراسان، خراسان في آخر المشرق والأندلس في آخر المغرب! قال: قفا واكتبا هذه الأبيات، تناسب المشهد، وكان راوية حافظاً، فقال:

نزلنا على قيسيةً يمنيةً      لها نسبٌ في الصالحين هجانُ  
فقلتُ وألقتُ جانبَ الخدرِ بيننا      لأيةِ قومٍ أم من الرجالِ؟  
فقلتُ لها: أمّا تميمٌ فأسرتي      سلمتِ وأمّا صاحبي فيماني  
رفيقانِ شتى ألف الدينُ بيننا      وقد يلتقي الشتى فيجتمعانِ

فهو يقول: لقد ألف الإسلام بينكما وصرتم أخوين، وأتى بهذا الشاهد، كيف تألفا وليس بينهما أبوة ولا نسب ولا رضاع، فألف الإسلام بينهما، فأحياناً الدين هو الذي يؤلف، وأحياناً يؤلف بين الناس أشكال ومذاهب، لكن أخوة الإيمان هي أعظم أخوة، حتى يقول أبو تمام:

إن يختلف ماء الوصالِ فماؤُدا      عذبٌ تحدرُّ من غمامٍ واحدٍ  
أو يفترقُ نسبٌ يؤلفُ بيننا      أدبٌ أقمنَاهُ مقامَ الوالدِ

يقول: الأدب الذي بيننا صار مثل الأب في النسب، وليته قال: (دين) بدلاً من (أدب).

وبالمناسبة، فقد أقيمت هذه المقطوعة في صنعاء لما قرأت عليهم المقامة اليمانية من المقامات قبل سنوات، ثم طلبوا مني أن أقف وقفات مع بعض شعرائهم، كالزبيري، محمد بن محمود الشاعر المشهور، فإنه خرج من اليمن مع الثورة وذهب إلى إذاعة باكستان وألقى قصيدة أرسلها إلى اليمن، يقول من ضمن أبياتها:

الشاعريَّة في رواعي سحرها	أنت الذي سويتها وصنعتها
أنت الذي بسناك قد عطرتهَا	وأشعتها بين الوردى وأذعتها
أبعدتني عن أمة أنا صوتها الـ	عالي فدو ضيعتني ضيعتها
ما قال قومي أه إلا جننتني	وكويت أحشائي بها وتسعتها
عذبتني وصهرتني ليقول عنك	الناس: هذي آية أبدعتها

وله قصائد أخرى في الحنين، عندما خرج من وطنه، يقول:

مزقيني يا ريح ثم انثري	أشلاء جسمي في جو تلك المعاني
وزعيني بين القود والأغصان وصلي	جبرتي وأحبابي وقصبي عليهم مادهاني
هل رثاني هزأها هل بكاني	ورقها هل شجأها ما قد شجاني
ليت للروض مقلدة فلعل	الدهر يبكيه مثلما أبكاني

وهذا من جيد شعراء اليمن، وقد جمعت أشهر ما قيل في ثوراتهم وفي حروبهم التي انتشرت بين الناس وبين الجمهور، ومنها قصيدة ذكرها صاحب حجر العلم ومعاقله والأكوع، وذكرتها في بعض المناسبات لما هاجم الإنجليز مدينة عدن واحتلوها ثم أخذوا يضربون الشمال، يريدون احتلال الشمال، فخرج لهم عالم اسمه يحيى بن محمد الإيراني، وهو من أبناء عبد الرحمن الإيراني الذي تولى رئاسة اليمن بعد السلال، المقصود أنه خطبهم خطبة بليغة واستحثهم لمقاتلة

الإنجليز، فلما سمعوا هذه القصيدة قاموا عن بكرة أبيهم، وقاتلوا الإنجليز، حتى هزموهم، كانت بريطانيا تضرب مدن اليمن منها صنعاء، فيخاطبها بالقصيدة القوية ويخاطب الجمهور:

يا بَريطانِيَا رويُداً رويُداً  
 إن بطشَ الإلهِ كانَ شديداً  
 وعاداً مِن قِبَلِكُمْ وثموداً  
 إن بطشَ الإلهِ أهلكَ فرعونَ  
 لا تظنُّوا هدمَ المدائنِ يودي  
 عزمنا أو يلينُ بأساً شديداً  
 إن تبيدوا من البيوتِ بطيًّا  
 راتكم ما عدا لدينا مَشيدا  
 فلنا في الجبالِ تلكَ بيوتُ  
 صنعَتها أجداننا أن تبيدا

ثم التفت إلى الطيارين في السماء، فقال:

فالنزالَ النزالَ إن كنتم مِمَّنْ  
 لدى الحربِ لا يخافُ البرودا  
 لتروا مِن يبيتُ منا ومنكمُ  
 مُوثقاً عندَ خصمه مضفوداً

(ما خضعنا للترك) يقول: أنتم الإنجليز على غير مذهبننا من الكفار، والترك والدولة العثمانية كانت مسلمة، ومع ذلك لم نخضع للأتراك، بل طردناهم:

ما خضعنا للتركِ مع قريهم  
 في الدينِ مذاً فكيفَ نرضى البعيدا  
 وهم في الأنامِ أشجعُ جيشاً  
 فاسألُوهم هل صادفونا فهُودا  
 أفترجو إنجلتِرا في بلادنا  
 تبا لسعغيها أن تبيدا  
 كذبتُ والإلهِ لا كانَ إلا  
 بعداً إلا تُبيدنا أو نبيدا  
 بعدما تسفكُ الدماءَ على الأرضِ  
 ونرمي سهولها بالنُجودا  
 يا بني قومنا، سراعاً إلى الله  
 فقد فازَ من يموتُ شهيدا  
 سارعوا سارعوا إلى جنَّةِ  
 قد فازَ من جاءها سعيداً شهيدا  
 والبسوا حلَّةً من الكفنِ الغالي  
 وبيعوا الحياةَ بيعاً مجيدا

فخرجوا وقاتلوا الإنجليز، وكان معهم الحضرائي الأديب الكبير المشهور الذي عاش مئة وثلاثين سنة، ومن أبنائه الشاعر إبراهيم بن أحمد الحضرائي وهو رجل موسوعي، وقد زار أحمد هذا المملكة مرات عدة وتوفي فيما بعد، وحضر المعركة، ثم أخذ بسلاحه البسيط وكانت بعض الطائرات مكشوفة على الطراز القديم مثل الداكتوتا وغيرها، فأرسل الرصاصات فوقعت في جمجمة الطيار الإنجليزي فسقط وسقطت الطائرة، فمدح من جميع الناس شعراً عربياً وشعراً عاماً شعبياً، من ضمن الشعر الشعبي يقول أحد الشعراء من تهامة يرسل لهذا الحضرائي يمجده ويمدحه أنه أسقط الطائرة، يقول:

لك الحمد يا منشي من النوة المطر      ورازق جميع الخلق في البر والبحور  
يقول المعنى طار في عيني السهر      بعد رقدة السمار دارت لي الفكور

(وبالله يا باهي على طلعة القمر)

يقصد الفارس الذي يذهب بالرسالة وبالتبريك وبالتهنئة..

وبالله يا باهي على طلعة القمر      على ادهم محجل في الضناك يثني الصخور  
تصل سوق شمر ذا على بابهم غفر      تنشد على القاضي ووقت الليل هصور  
إذا قلت قاضي عنده اللون والبرر      من العلم وانجات المشاكل فهو صبور  
من آل كبيشن ذا يعدين في الغور      ويعدين في الضيقات عداية الصقور

فيقول: إنه قاضٍ وقد أصاب الطائرة.

وقاضي يصيب الصيد ما يخلف النظر      ونمر النمارة عادته ياكل النمر

في قصائد طويلة، لكن هذه من الذكريات؛ لأننا انتقلنا إلى مسألة اليمن.

لأن الأدب أصلاً لا ينبني على مسألة العلم الأكاديمي المفصل على أبواب وفقرات وفصول.. لا، الأدب كالبيستان، الأدب أن يكون كما يقول علي الطنطاوي: الدرس فوضى، تذهب ذات اليمين وذات الشمال.. حديث.. قصص.. إبداعات متنوعة، يعني أنه كالحديقة الغناء، زهر.. وفل.. وخمائل.. وعصافير.. وقمري.. وبلابل.. وهكذا.. وإلا فلو حصرناه كدرس الفقه لما سمي أدباً، ولا سمي سمرأ.

المتنبي يذكر كلاً بما فيه، فدائماً يذكر سيف الدولة بالشجاعة؛ لأن سيف الدولة بارز الشجاعة، فلذلك ركز أبو الطيب المتنبي على هذا الجانب في سيف الدولة، فيقول مثلاً:

وقضت وما في الموت شك لواقفٍ      كأنك في جفن الردى وهو نائمٌ  
تمرُّ بك الأبطالُ كلمى هزيمةً      ووجهك وضاحٌ وتغرُّك باسمٌ

وإذا أتى العلماء فلا يمدحهم بالشجاعة؛ لأن العالم تمدحه بالعلم، بالتحقيق العلمي، بالفهم، بإفادة الناس والنفع، قال:

علامة العلماء واللجج السدي      لا ينتهي ولكل لجج ساحلٌ  
افخر فإن الناس فيك ثلاثة:      مستعظمٌ أو حاسدٌ أو جاهلٌ  
وإذا أتتك مدمتي من ناقصٍ      فهي الشهادة لي بأني كاملٌ

وحين يأتي ابن العميد الكاتب المشهور، لا يمدحه بالشجاعة؛ لأنه كاتب ومن الكتاب المثقفين وصاحب إبداع، فلا ينبغي أن يقول: أنت الذي يقتل الأبطال.. وهو لا يقتل الأبطال ولا يبارز ولا يقاتل.. فمدحه بالأدب والكلمة، قال:

من مخبر الأعراب أني بعدهم      جالست جالينوس والإسكندرا  
ودرست بطليموس دارس كتبه      متعلماً متبدياً متحضراً  
قطف الرجال القول قبل نباته      وقطفت أنت القول لما نوراً

ويأتي مثلاً إلى عضد الدولة الملك وهو من أكبر الملوك، وكان جباراً ظلوماً  
عسوفاً داهية مهيباً، يمدحه بالقوة والتفرد على الملوك والتفرد على زعماء  
عصره، فقال:

فِدَى لِكَ مِنْ يَقْصُرُ عَنْ مَدَاكَا	فَمَا مَلِكٌ إِذَا إِلَّا فِدَاكَا
وَلَوْ قُلْنَا فِدَى لِكَ مَنْ يَسَاوِي	دَعَوْنَا بِالْبِقَاءِ لَمَنْ قَدَاكَا
أَرْوُحٌ وَقَدْ خْتَمْتُ عَلَى فِؤَادِي	بِحُبِّكَ أَنْ يَحُلَّ بِهِ سِوَاكَا
وَقَدْ حَمَلْتَنِي شُكْرًا ثَقِيلاً	طَوِيلاً لَا أَطِيقُ لَهُ حَرَكََا
أَحَاذِرُ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمَطَايَا	فَلَا تَمْشِي بِنَا إِلَّا ابْتِرَاكَا
إِذَا اشْتَبَكَتْ دَمُوعٌ فِي خَسُودٍ	تَبِينُ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكِي
إِذَا اسْتَشْفَيْتُ مِنْ دَاءٍ بَدَاءٍ	فَأَقْتُلْ مَا أَعْلَكَ مَا شَفَاكَا

فقصدي أنه ينتقل على حسب الأغراض وحسب الممدوح.

ونعود إلى أصل القصيدة؛ لأنه لما قال:

عَبْدُكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانٍ      وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ الْقَمْرَانِ

يقول في آخرها:

قَضَى اللَّهُ يَا كَأْفُورُ، أَنْكَ أَوْلُّ      وَلَيْسَ بِقَاضٍ أَنْ يَرَى لِكَ دَانٍ

وهذا خطأ؛ فإنه لم يطلع على قضاء الله وقدره، والله يقضي ما يشاء، والعبد  
ليس له علم بقضاء الله ﷻ، ومن أخبر هذا العبد الضعيف، فهذا من تجاوزاته،  
وهذا من جموحه، وهذا من خطئه، وهذا من تعديه وبغيه، فإن الله يقضي ما  
يشاء ويقدر سبحانه وتعالى، لا غالب لأمره سبحانه وتعالى، ولا راد لقضائه، فإنه  
فعال لما يريد جل في علاه، لكن هذه الجرأة، بل الله يقضي ما يشاء، وأتى قبل

كافور وبعده من هو خير منه ديانة وإصلاحاً وعملاً ومجداً وعطاءً وبذلاً وشجاعةً، وانظر إلى التناقض، بالأمس يقول هذا الكلام، وفي الغد ينقضه بسبب من أفحش السب في كافور، وهذا شأن الذي لا ينطلق من مبدأ ولا من رسوخ علمي ولا من يقين معرفي، وليس عنده رسالة في الحياة ولا قضية، ولكننا نأخذ إبداع المتنبّي وعبقريته وحكمه التي قالها، لكن المسالك الخطأ التي نهجها كالفلوحي المدح، والفلوحي الهجاء، وسرعة التذبذب والتردد، مرة يمدح ومرة يسب، مرة يرضى ومرة يقضب، فإننا لسنا وراء هذه الشخصية القلقة المتقلبة الماردة الثائرة، فشخصيته شخصية عبقري.. ثائري.. متمرد.. غضوب.. مزاجي.. حاد، لكننا نريد أن نقوم هذا؛ لأن عندنا رسالة ربانية، وسنلتقي مع المتنبّي في أحد المجالس من هذا الكتاب، سوف نلتقي معه في محكمة الإنصاف ونقرأ دعاويه، ونقيم البيئة على صدق ما قلنا من النقد، ونثبت له ما قال من محاسن ومن حكم، فنحن أمرنا بالعدل، وسوف نحاكمه بالميزان الذي هو ميزان الشريعة، وهذا الذي نطمح إليه ونحن تحت مظلة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.



## أهل العزم

يقول أبو الطيب المتنبّي:

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ  
وتأتي على قدرِ الكرامِ المكارمُ

وهذه من أرفع قصائده وأجلها عند الأدباء  
وأهل النقد، بل يجعلونها أحياناً الأولى في  
قصائده، حتى إن المطلع يبهرك، وكان يمدح بها  
سيف الدولة، من ضمن أبياته الشائقة الرائعة، بل  
الذائعة الشائعة، بل الرفيعة البديعة قوله لسيف  
الدولة، وهو في المعركة لما قاتل الأعداء:

وقضت وما في الموت شك لواقف      كأنك في جفن الردى وهو نائم  
تمرُّ بك الأبطالُ كلمى هزيمة      ووجهك وضاحٍ وشغرك باسم

والشاهد من هذا أنه يتكلم عن علو الهمة في أول القصيدة، فيقول: (على قدر أهل العزم تأتي العزائم): فعلى قدر ما عندك من همة يكون لك من النتائج المرضية؛ لأن همتك أوصلتك إلى مراقبي الصعود للمجد.

يقولون: ليست الهدية على قدر من أهديت له، ولكن على قدر المهدي نفسه، فدل على أنه من أراد أن يتبوأ المجد الدنيوي والمجد الأخروي فليأت بهمة عالية، وهذا أمر متفق عليه عند جميع العقلاء، وهو كان يشيد في قصائده بهمته، ولكن للأسف أنها انحرفت عما ينبغي أن تكون عليه من الإيمان والعمل الصالح والإصلاح في الناس والفضيلة، انحرفت إلى طلب المجد الدنيوي والعلو في الأرض وطلب المنصب والجاه والشهرة والظهور.. حتى يقول:

أطاعنُ خيلاً من فوارسها الدهرُ      وحيداً وما قولِي كذا ومعي الصبرُ  
وأشجعُ مني كل يومٍ سلامتي      وما ثبتتُ إلا وفي نفسيها أمرُ  
تمررتُ بالآفاتِ حتى تركتها      تقولُ: أمات الموتُ أم دعرَ الذعرُ  
وأقدمُ إقدامِ الأتي كأن لي      سوى مهجتي أو كان لي عندها وترُ

والأتي هو السيل، فيا لها من همة! إلى آخر ما قال، ثم قال:

وتتركُ في الدنيا دويماً كأنما      تداولُ سمعَ المرءِ أنمله العشرُ

الشاهد أن الشعراء نهجوا هذا المنهج من قبل ومن بعد، لكنه تفوق في أنه يأخذ العبارة فيضعها في قالب جميل أخاذ جذاب، ولذلك فاق الشعراء بمعانيه وبجمالياته في الجملة، وإلا فبعض مفردات الشعراء قد يغلبونه فيها، لكن في

## أهل العزم

جملة قصائده هو يغلبهم بلا شك، فصار هو سيد الشعراء وإمبراطور الشعور وملك الشعراء.

والشريف الرضي يقول أيضاً مخاطباً نفسه:

أَقْسَمْتُ أَنْ أُورِدَهَا حَرَّةً      وَقَاحَةً تَحْتَ غِلَامٍ وَقَاحِ  
إِذَا فَتَى نَالَ الْمُنَى فَاشْتَقَى      أَوْ فَارَسَ زَارَ الرَّدَى فَاسْتَرَاحِ

الوقاح من لا يستحيي من طلب الشيء حتى يدركه. وقاحة يعني: في جراءة صارمة إلى درجة أنه لا يردده راداً، وقد نظم بعض المتأخرين عليه قصائد كالشوكاني في نيل الأرب، ونظمت بيتين قلت فيهما:

إِذَا سَأَلْتِ اللَّهَ فِي كُلِّ مَا      أَمَلْتَهُ نَلَتْ الْمُنَى وَالنَّجَاحِ  
بِهَمَّةٍ تَخْرُجُ مَعَ الصَّفَا      وَعِزْمَةٍ مَا شَابَهَا قَوْلُ أَح

همة من لا يتعب ويقول: أح، من المعركة أو من المجد أو من السهر أو من التعب؛ لأن طريق العلياء محفوف بالمخاطر والأشواك والنكبات، أما طريق الانحراف فهو منحدر، ولذلك فهو سهل.

ولذلك تجد من يسقطون كثيراً، أما الذين يصعدون فإنهم قليل، حتى يقول الصينيون: الجالس على الأرض لا يسقط، بل هو مرتاح، إنما يسقط الذي يذهب إلى القمم أو يصعد الجبال العالية. ومثله مثل الذي يأتي إلى المجد، حتى يقول المتنبي نفسه:

لَا يَدْرُكُ الْمَجْدَ إِلَّا سَيِّدُ فَطْنٍ      لَمَّا يَشْقُ عَلَى السَّادَاتِ فَعَالٍ  
كَبُولًا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلَّهُمْ      الْجَوْدُ يَفْقَرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَالٍ

فأوصي العقلاء والأدباء والحكماء بأن يكون عندهم همة وثابة، وإلا فالناس متشابهون في اللحم والدم والصور الظاهرية والأجسام، إنما يختلفون في الهمة،

أن يكون عند الواحد همة فترقى به، فتجد بعض الناس يفوق الألاف المؤلفة من البشر بهمته، وتجد آلاف البشر لا يساؤون رجلاً واحداً، كما يقول ابن دريد:

والناس ألف منهم كواحدٍ      وواحدٌ كالآلفِ إن أمرَ عُنَا

حتى يقول الشاعر:

فكن رجلاً رجله في الثرى      وهمة هامة في الثرى

أنت جالس على الأرض، لكن اجعل همتك فوق النجوم، حتى إن المتنبي يقول، وانظر إلى كلماته العذبة وتناسقها:

إذا غامرت في شرفِ مرومٍ      فلا تقنع بما دون النجومِ

هذه حرب النجوم عند المتنبي، يقول: دون النجوم لا ترض، بل فوق النجوم، يعني: لا يحدك حد، فهو يرى في الدنيا ألا تطلب الشيء ميسراً مسهلاً، حتى إن ابن الجوزي تكلم على الهمة العالية فقال: لو أن النبوة تكتسب كسباً لكان وجب على الناس أن يطلبوها، لكن النبوة هبة من الله موقفة، وختمها برسولنا ﷺ، فلا تؤتى لأحد بعده عليه الصلاة والسلام؛ أي: لو كانت كسباً لكان وجب على الناس أن يطلبوها، لكن عند الناس أمرين: العمل الصالح والعلم النافع، هذا الذي يطلب، ولذلك يقول عليه الصلاة والسلام كما في البخاري: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم..» فجعل الهدى العمل الصالح، والعلم النافع.

فهنا يقول: إذا غامرت... أي: ما دمت تدخل في الموضوع، ما دمت تشق طريقك إلى النجاح، ما دمت تستهزر.. فلا تفن نفسك على شيء تافه وحقير وبسيط، حتى يقول:

قطع الموت في أمرٍ حقيرٍ      كقطع الموت في أمرٍ عظيمٍ

الموت واحد، وسوف يموت الإنسان إما تخمة بأكله، أو يموت شريفاً عابداً أو يموت زاهداً، أو يموت ماجداً، أو يموت شهيداً، أو يموت بسبب مخدرات، فلا بد

من أن يموت، فهو يقول: فاجعلها ميتة شريفة، حتى يقول الحسن البصري رضي الله عنه: لا تجعل لنفسك ثمناً غير الجنة.

يعني: مهما ساوموك فلا تطلب إلا الجنة. ولذلك لام الله أعداءه من الذين زوروا في الكتاب، فقال: ﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [الثورة: 9] الدنيا كلها ثمن قليل كما يقول كثير من المفسرين، فهو يلوم من كان هذا فعله، يقول: اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، مثل: الكهنة.. مثل العرافين.. السحرة.. مثل من يرتشي.. مثل من يرابي.. أخذ ثمناً قليلاً، لو أعطي الدنيا كلها وترك الدين لكان ثمناً قليلاً، ولذلك من وصل حتى في عالم الدنيا فهو من همتهم العالية.

يقول المأمون: أدهى الناس اثنان: الإسكندر المقدوني، نقل الحكم من دولة إلى دولة، يعني إلى دولة اليونان مقدونيا، نقلها من الرومان، وأبو مسلم الخراساني نقل الدولة من بني أمية إلى بني العباس. وأبو مسلم الخراساني أعجمي، كان عمره ثمانية عشر عاماً يتقلب وأمه في البيت، لا ينام إلا قليلاً ثم ينقلب على شقه اليمين ثم على اليسار، عندما ينقلب على اليسار كأنه حية، حتى يأتي الفجر، فتقول أمه: ما تنام؟! فيقول: همة تنطح الثريا، وعزم يدك الجبال، فبعد مدة يكون حرسه الخاص عشرة آلاف مسلح، ويقلب الدولة وعمره ثمانية عشر، وفوق هذا هو أعجمي وليس بعربي، كان يمشي والطواير أمامه، وخطب مرة وعليه عمامة سوداء، فقام أحدهم يتكلم أمام هذا الذي يسفك الدم مثل الماء، قال: أيها الأمير، لا تلبس السواد، فشعار دولة بني العباس السواد، فقال: حدثنا فلان عن فلان عن أبي الزبير عن جابر: «أن رسول الله ﷺ دخل عمرة القضية وعمامته سوداء على رأسه» يا غلام، أعطني رأسه، فقطع رأسه وسقطت الجثة بين الصفوف.

فصاحب الهممة هذا أبو مسلم تقول أمه: لماذا لا تطلب الهممة؟ قال: يمنعي العقل، يقول: أفكر أحياناً لكن العقل يرذني، حتى إن المتنبئ يقول وهو يمدح

أحد الفاتكين واسمه المجنون، من شجاعته سماه الناس المجنون، إذا دخل في المعركة يطيش عقله فيخبط في الناس خبط عشواء، فيسمونه المجنون، فيمدحه المتنبى، قائلاً:

سَمَاءُ حَاسِدُهُ الْمَجْنُونُ مِنْ وَلِيهِ إِذَا اخْتَلَطُنْ وَبِعَضِّ الْعَقْلِ عَقَالُ

يقول: بعض العقول تمنع صاحبها؛ لأن بعض الناس تراه يحذر. فتقول له: اخطب.. فيقول: والله إني أخشى إذا خطبت أن بيرز لي حساد، ثم يفهمون أنني أريد أن أظهر.

فتقول: أَلْفَ كِتَابًا، قال: أنا لا أعجز عن أن أُولفَ كِتَابًا، لكن افرض أنني أَلَفْتُ كِتَابًا، ثم وقع فيه أخطاء، ثم رد عليه العلماء، ثم بدعوني، فسأصير بعد ذلك مبتدعاً، فكل شيء له احتمالات لديه ووساوس، ما يأتي بالمجد إلا جرأة، كما قال:

سَمَاءُ حَاسِدُهُ الْمَجْنُونُ مِنْ وَلِيهِ إِذَا اخْتَلَطُنْ وَبِعَضِّ الْعَقْلِ عَقَالُ

يقول: بعض العقل يقيّدك مرة إلى أن يجعلك لا تستطيع أن تتصرف، العقل الكريم السديد هو الذي يجعلك جريئاً بحكمة.

ويقول آخر:

هِمَّةٌ تَنْطَحُ الثَّرِيًّا وَعَزْمٌ نَبِيٌّ يَزْعَزُغُ الْأَجْبَابَ إِلَّا

لماذا قال نبوي؟ لأن أرفع الناس همة هو محمد ﷺ، همة عظيمة، حتى إنه يعلمنا في الدعاء في قوله للصحابة والمؤمنين من أتباعه ﷺ: «إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدوسَ» يعني: حتى في الدعاء لا ترض إلا بالفردوس، فإنها أعلى الجنة ووسط الجنة، وسقفها عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنان « فلا تقل: اللهم، أدخلني الجنة فقط. لا، قل: اللهم، إني أسألك الفردوس الأعلى من الجنة، حتى النبي ﷺ وهو في سكرات الموت قال: «بِلِ الرِّفِيقِ الْأَعْلَى بِلِ

## أهل العزم

الرفيق الأعلى» ما هذه الهمة! سبحان الذي أعطاه، الدنيا لا تساوي عنده شيئاً، جبال الذهب، جبال الفضة.. الغنائم.. الدراهم.. الجيوش.. الدول.. لا تساوي شيئاً، أرفع الناس همة، لحقه الأعراب بعدما انتصر ﷺ في حنين وحصل على سبعة آلاف رأس من الإبل وأربعة وعشرين ألف رأس من الغنم، وحصل على ذهب وفضة وغنائم وسبائياً فأخذ يقسمها، خذ يا فلان.. مسلمة الفتح أسلموا الآن، قال: خذ مئة ناقة، قال آخر أعطني: قال تنظر الغنم التي بين جبلين، خذها لك، قال آخر.. قال خذ مئة ناقة، وقال لآخر: خذ أنت ألف شاة، فتعلق رداء النبي ﷺ والأعراب يطاردونه. وهو ﷺ لم يأخذ شاة ولا رغيفاً من الخبز، ولا أخذ ثوباً، قال: «فكوا علي ردائي، والذي نفسي بيده لو كان مثل جبال تهامة ذهباً وفضة لوزعتها، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً» عليه الصلاة والسلام، ثم يذهب من الدنيا ولم يأخذ شيئاً، ولا أبقى شيئاً، ولا ورث شيئاً بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام، في غرفة من الطين.

كضآك عَنْ كُلِّ قَصْرِ شَاهِقٍ عَمْدُ  
بَيْتِ مَنْ الطَّيْنِ أَوْ كَهْفِ مَنْ الْعَلَمِ  
تَبْنِي الْفَضَائِلَ أَبْرَاجاً مَشِيدَةً  
نَصَبَ الْخِيَامِ الَّتِي مِنْ أُرُوعِ الْخَيْمِ

فصلى الله وسلم عليه ما ذكره الذاكرون، وصلى الله وسلم عليه ما غفل عن ذكره الغافلون.

فنحن ما زلنا في ظلال بيت أبي الطيب وفي سياقه:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ  
وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

وهو في بيت آخر من قصيدة أخرى يقول:

وَإِذَا كَانَتِ النَّفْسُ كِبَاراً  
تَعَبَتْ فِي مَرَادِهَا الْأَجْسَامُ

إذا كانت النفس كبيرة وشريفة ولها مطالب عالية من العمل الصالح والإيمان والعلم والمعرفة والمروءة والخصال الجميلة.. ثناء حسن في الناس.. وسيرة

جميلة يتعب جسمه؛ لأن هذه الهمة تحتاج إلى تعب، وتحتاج إلى حضور للصلاة..  
ولحفظ القرآن.. وإلى طلب العلم.. وإلى بذل الخير في الناس.. وإلى الإصلاح  
فيما بينهم.. وإلى التصدر بالفضيلة.. وإلى نشر المعرفة.. وإلى التعلم والتعليم..  
فيتعب جسمه، أما الخامل الساقط التافه فليس يهمله شيء، قال عنهم سبحانه:  
﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهم كُحُوبٌ مُسْتَدَةٌ﴾  
[المنافقون: ٤]، ويقول الشاعر:

لَا بَأْسَ بِالْقَوْمِ مِنْ ضَخْمِ وَمِنْ عَظْمِ جِسْمِ الْبَغَالِ وَأَحْلَامِ الْعَصَافِيرِ

فهذا مثل الذي ليس عنده همة وليس عنده نفس كبيرة. فهو دائماً يئبه في  
قصائده على الهمة العالية، لكن لئبه صرفها في الأحسن والأجمل، إنما تهالك  
المسكين، حتى إن ابن الجوزي العالم الرباني الواعظ الكبير في صيد الخاطر  
يرثي للمتنبي، يقول: بحثت عن همته وإذا الرجل طامح بهمته وقتل نفسه، ثم  
بحثت عنه فإذا به يريد إمرة أو منصباً.. يريد دنياً.. يريد ذهباً.. ثم ماذا لمن  
ملك إلى ملك، من كافور إلى سيف الدولة إلى عضد الدولة إلى ابن العميد إلى  
فلان.. كله في سبيل هذه الدنيا، قال: فنظرت إلى همته، فإذا هي أرقى وأعظم  
وأجل - يعني نفسه - لأنني أطلب العلم النافع وأريد العمل الصالح وأريد أن أصلح  
قلبي وقلوب الناس ونحو ذلك، وصدق ابن الجوزي، فلا مقارنة بين ابن الجوزي  
العالم الرباني الموسوعي الكبير، وبين المتنبي اللوذعي العبقرى الشاعرى  
الأعجوبة، ولكنه صرفها للدنيا ولجاء الدنيا وشهرة الدنيا، فكما يقول الأول:

أَلَا بَلَّغَ اللَّهُ الْحِمَى مَنْ يَرِيدُهُ وَبَلَغَ أَكْدَافَ الْحِمَى مَنْ يَرِيدُهَا

كما يقول سبحانه: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾

[آل عمران: ١٥٢] ويقول القفال الشاشي:

اطْلُبْ وَلَا تَضْجُرْ مِنْ مَطْلَبِ فَأَفَةُ الطَّالِبِ أَنْ يَضْجُرَا

## أهل العزم

يعني: إذا أردت مطلباً عالياً عظيماً فاطلب، والموت أن تضجر من المطلب،  
استمر في عمل دنيوي صالح مفيد، في حرفة.. في مهنة.. في إنتاج.. في عمل..  
في فن علمي..

أَمَا تَرَى الْحَبْلَ بِطَوْلِ الْمَدَى عَلَى صَلِيبِ الصَّخْرِ قَدْ أُثْرَا

الحبال التي في السواني التي تخرج الماء من الآبار هي جلد، فيأتي هذا  
الحبل من الجلد على الصخر، لكثرة ما يذهب ويأتي أخذ له طريقاً وأخوداً  
في الصخر، وكذلك الطالب والمجتهد والباذل والمضحى والمثابر سوف يشق  
طريقه إلى المجد لا محالة إذا استمر وإذا صبر، حتى إن أحد العباد يقول لغلامه  
في الليل، وقد كان يصلي فقال:

طال الليل علينا، قال:

طاول بها الليل ضن ما لليل أو جناحها وماطل الجفن جاد الجفن أو سمحا  
فإن تشكت فعلمها المجرة من ضوء الصباح وعدّها بالروح ضحى

فعند الصباح يحمد القوم السرى؛ إذا طلع الفجر تذكر أحدنا أنه قام البارحة  
وصلّى حزبه من القرآن، وتنفّل وبكى ودعا في السحر وأرسل سهام الدعاء وفتح  
عليه. ففي الضحى لا يحس للتعب بمعنى ولا طعم، أما من ينام ويصبح جيفة  
فيأتي في الصباح، فأين لذة النوم التي ذهبت منه؟ وأين الخمول الذي عاشه؟  
وأين الكسل الذي قدمه وآثره؟ فذلك من يتعب سوف يجني ثمره من الثناء  
الحسن والأجر والثواب عند الله، والذي يكسل عن الصالحات سوف يجنيه ندامة  
وخيبة وحسرة، حتى يوم العرض الأكبر على الله.

انظر إلى امرئ القيس وهو جاهلي، ويطلب دم أبيه من بني أسد الذين قتلوا  
والده وذهب إلى قيصر يريد أن ينتصر له، كما يذهب الواحد منا الآن إلى أمريكا؛  
ليستعين بها على عدو، فذهب.. يقول:

وَلَوْ أَنَّمَا أَسْعَى لِأَدْنَىٰ مَعِيشَةٍ      كَفَانِي - وَلَمْ أَطْلُبْ - قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ  
وَلَكِنِّي أَسْعَى لِمَجْدٍ مُّؤَثَّلٍ      وَقَدْ يَدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤَثَّلَ أَمْثَالِي

يقول: أسعى لمجد أبي؛ لأن أباه كان ملكاً في كندة، فقتله بنو أسد في نجد وكان أصلهم من اليمن من حضرموت، فلما أتاه الخبر كان يشرب الخمر، فقال: اليوم خمر وغداً أمر، وقال: أما أبي فما أنصفتي، ضيعني صغيراً وحمّلتني دمه كبيراً، فأراد أن يستنجد بالعرب فما وجد أحداً، فذهب برجل معه صديق اسمه عمرو بن قميئة، فبكت أم عمرو؛ لأنه سيسافر معه إلى قيصر الروم، وهذا السفر طويل، فقال:

أَرَىٰ أُمَّ عَمْرٍو دَمْعُهَا قَدْ تَحَدَّرَا      بَكَاءَ عَلَىٰ عَمْرٍو وَمَا كَانَ أَنْصَبَا  
بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى النَّبْرَ دُونَنا      وَأَيُّقِنُ أَنَّنَا لَاحِقَانِ بِقَيْصَرَا  
فَقُلْتُ لَهُ: لَا تَبْكِ عَيْنَاكَ إِنَّمَا      نَحَاوُلُ مَلِكاً أَوْ نَمُوتُ فَنَعْدُرَا

يعني: إما أن نحصل على ملك أو نموت شرفاء.

كما يقول العامي: يخرج الفارس، إما ذاق موت الشرف والاسلم.

فإما أن يعيش الإنسان سعيداً منعماً في الخير والثناء الحسن، وإلا فليمت ليلقى ربه سبحانه وتعالى أحسن من حياة المهانة.

لكن الشاهد: إنك عندما تسمع امرأ القيس تقول: سبحان الله! ما هذا المجد وهذا الإصلاح؟ وهو جاهلي.. سفك دم.. وسرقات.. ونهب.. وثارات.. واغتياالات.. ونحو ذلك.

فلما جاء الإسلام أخبرنا ﷺ كيف تكون الهمة العالية، كيف يكون الطريق إلى المجد الباقي عند الواحد الأحد، كما جاء في القرآن: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ

## أهل العزم

يُنَاحَى ﴿ [المدر: ٣٧] ويخبرنا سبحانه وتعالى بالمسارعة، ليست كمسارعة امرئ القيس إلى الخمر والضياع وسلب القبائل وسفك الدماء والسرقات، وإنما قال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفُورٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، كما قال ﷺ: «بادروا بالأعمال سبعاً»، «اغتنم خمساً قبل خمس» هذا منطلق الوحي كتاباً وسنة، أن تبادر إلى معالي الأمور في الصف الأول في المسجد:

مَنْ لِي بِمَثَلِ سَيْرِكِ الْمَدْلُلِ      تَمْشِي زُوَيْدًا وَتَجِي فِي الْأُولِ

قراءة القرآن.. كثرة الذكر.. عمل الصالحات.. الصدقة.. الإصلاح بين الناس.. بر الوالدين.. الرحمة بعباد الله ﷻ.. إيصال النفع إليهم.. كف الأذى عنهم إذا لم تستطع أن تفعل شيئاً.. هذه هي معالي الأمور التي بعث بها عليه الصلاة والسلام. فإن الله سبحانه وتعالى أمر بمعالي الأمور وكره سفاسفها وحرّم ذلك.

حتى المتنبّي يلوم من ليس عندهم همم، وهو يقصد همم الدنيا، قال:

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَرْضَى بِمَيْسُورِ عَيْشِهِ      وَمَرْكُوبِهِ رَجَالَهُ وَالشُّوبُ جَلْدُهُ  
وَلَكِنْ قَلْبًا بَيْنَ جَنْبَيْ مَالِهِ      مَدَى يَنْتَهِي بِي فِي مُرَادِ أَحَدُهُ

يقول: قلبي هذا ليس له مراد يحد أبدأ، همته عالية ووسيلة وفسيحة وأفاقه مرتفعة.

أَحَاوَلُ أَنْ أَكْسَى ثِيَابًا تَشْفُهُ      فَيَخْتَارُ أَنْ يَكْسَى دَرُوعًا تَهْدُهُ

له حكم في هذه القصيدة، حتى علم الناس البخل وهو يريد أن يعلمهم الحكمة، قال:

فَلَا مَجْدَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ      وَلَا مَالَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

فَإِذَا يَنْحَلُّ فِي الْمَجْدِ مَائِكَ كُلُّهُ      فَيَنْحَلُّ مَجْدًا كَأَنَّ بِالْمَالِ عَقْدُهُ  
وَدَبْرُهُ تَدْبِيرَ الَّذِي الْمَجْدُ زَنْدُهُ      إِذَا قَاتَلَ الْأَعْدَاءَ وَالْمَالُ مَجْدُهُ

وهو كان من أبخل الناس، جمعها ثم ذهب وتركها، جمع أكياساً وقناطر  
مقنطرة من الملوك ومدحهم، ثم ذهب مقتولاً في صحراء بين خراسان وبين  
بغداد، ولو كان أنفقها وبنى بها مساجد أو حفر بها آباراً لكان أفضل له.

فيقول عليه الصلاة والسلام: «إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس»  
وأعود إلى همته عليه السلام. ماتت أمه وهي راجعة إلى مكة، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله مع جده  
عبد المطلب، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون  
حول ذلك الفراش حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً، فكان رسول  
الله صلى الله عليه وآله يأتي وهو غلام يجلس عليه فيأخذه أعمامه؛ ليؤخروه عنه، فيقول عبد  
المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا بني فوالله إن له لشأناً، ثم يجلسه معه عليه  
ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع.

فلما شرف الله صلى الله عليه وآله نبيه صلى الله عليه وآله بالرسالة وأتى في حنين بعد النبوة وقاتل هوازن  
ضاقت عليه الأرض بما رحبت هو، والصحابة، وجاء جيش هوازن نحو عشرة  
آلاف، وجاء الرمي من الجبال، ففر كثير من الصحابة، فرت بهم خيولهم، جاء  
رمي السهام عليهم مثل السحاب، فضاقت المكان، ولكن النبي صلى الله عليه وآله لم يضر هو وقلة  
من الصحابة، أما البقية ففروا، قال: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

حتى إنه لما أراد العرب أن يباركوا لسيف بن ذي يزن، ملك العرب ملك  
أهل اليمن، سيف بن ذي يزن طرد الأحابيش، الذين احتلوا اليمن، فأتى فجمع  
القبائل العربية وصدم الأحابيش وأجلاهم من اليمن، فاجتمعت القبائل وقالوا:  
نريد أن نذهب ونبارك لسيف بن ذي يزن في قصر عمدان، وقصر عمدان قصر

## أهل العزم

مشهور في صنعاء، وكان الملك فيه، قالوا: نختار عشرة من سادات العرب وقبائل الجزيرة كلها، فاخترنا سيدهم عبد المطلب، وهذا قبل بعثة النبي ﷺ، قالوا: نريد سيداً ليس في السادات مثله، قالوا: عبد المطلب، قالوا: وشاعر لا يعدله في الشعراء، قالوا: أمية بن أبي الصلت في الطائف من ثقيف، قالوا: وخطيب، قالوا: عمرو بن الأهتم، قالوا: وشريفهم الذي يصلح بين الناس، قالوا: حاجب بن زرارة، فذهبوا، فقدموا عليه صنعاء، فإذا هو في رأس غمدان الذي ذكره أمية بن أبي الصلت في قوله:

فاشربْ هنيئاً عليك التاج مرتفعاً      في رأسِ غمدانِ داراً منكٍ محلاً لا  
واشربْ هنيئاً فقدْ سالتُ نعامتهم      وأشبِلُ اليومَ في بردِكِ إشبالاً  
تلكَ المكارمُ لا قعبانَ من لبِن      شيباً بماءِ فعاداً بعدُ أبوالا

والملك متصمخ بالعبير بلصف وبيص المسك في مفرق رأسه، وعليه بردان أخضران مرتدياً بأحدهما مؤتزراً بالأخر، سيفه بين يديه، وعن يمينه وعن شماله الملوك. فدخل عليه الآذن، فأخبره بمكانهم، فأذن لهم، فدنا عبد المطلب فاستأذنه في الكلام، فقال له: إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد أذنت لك.

فقال له عبد المطلب: إن الله قد أحلك أيها الملك، محلاً رقيقاً صعباً منيعاً، شامخاً باذخاً، وأنبتك منبتاً طابت أرومته وعزت جرثومته، وثبت أصله، وبسق فرعته، في أكرم موطن وأطيب معدن، فأنت - أبيت اللعن - ملك العرب، وربيعةا الذي تخصب به البلاد، ورأس العرب الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومقلها الذي يلجأ إليه العباد. وسلفك خير سلف، وأنت لنا منهم خير خلف، فلن يخمل من هم سلفه ولن يهلك من أنت خلفه، ونحن أيها الملك، أهل حرم الله وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجتك من كشف الكرب الذي قد فدحنا فنحن وفد التهئة لا وفد المرزئة.

قال: وأيهم أنت أيها المتكلم؟

قال: أنا عبد المطلب بن هاشم.

قال: ابن أختنا؟ قال: نعم.

قال: ادن.

فأدناه، ثم أقبل عليه وعلى القوم فقال: مرحباً وأهلاً، وناقفةً ورحلاً، ومستناخاً سهلاً، وملكاً ربحلاً يعطي عطاءً جزلاً.

قد سمع الملك مقاتلكم وعرف قرابتكم، وقبل وسيلتكم، فأنتم أهل الليل والنهار، ولكم الكرامة ما أقمتم والحياء إذا ظعنتم.

ثم نهضوا إلى دار الكرامة والوفود، فأقاموا شهراً لا يصلون إليه، ولا يأذن لهم بالانصراف، ثم انتبه لهم انتباهة، فأرسل إلى عبد المطلب فأدنى مجلسه وأخلاه ثم قال: يا عبد المطلب، إني مفض إليك من سر علمي ما لو يكون غيرك لم أبح به.

ولكني رأيتك معدنه فأطلعتك عليه، فليكن عندك مطوباً حتى يأذن الله فيه، فإن الله بالغ أمره.

إني أجد في الكتاب المكنون والعلم المخزون الذي اخترناه لأنفسنا واحتجنا به دون غيرنا خيراً عظيماً، وخطراً جسيماً، فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس عامة ولرھطك كافة ولك خاصة.

فقال عبد المطلب: أيها الملك، مثلك سرور، فما هو، فدأوك أهل الوبر زمراً بعد زمرة؟ قال: إذا ولد بتهامة غلام به علامة، بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة، ولكم به الزعامة إلى يوم القيامة.

## أهل العزم

قال عبد المطلب: أبيت اللعن، لقد أبت بخير ما أب به وافد، ولولا هيبه الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من بشارته إياي ما أزداد به سروراً.

قال ابن ذي يزن: هذا حينه الذي يولد فيه أوقد ولد، واسمه محمد، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه، ولدناه مراراً والله باعته جهاراً، وجاعل له منا أنصاراً، يعز بهم أولياءه ويذل بهم أعداءه، ويضرب بهم الناس عن عرض، ويستريح بهم كرائم الأرض، يكسر الأوثان ويخمد النيران، يعبد الرحمن ويدحر الشيطان، قوله فصل، وحكمه عدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله.

فقال عبد المطلب: أيها الملك - عز جدك، وعلا كعبك، ودام ملكك، وطال عمرك، فهذا نجاري، فهل الملك سار لي بإفصاح، فقد أوضح لي بعض الإيضاح.

فقال ابن ذي يزن: والبيت ذي الحجب والعلامات على النصب إنك يا عبد المطلب، لجده غير كذب.

فخرّ عبد المطلب ساجداً، فقال: ارفع رأسك، تلج صدرك، وعلا أمرك، فهل أحسست شيئاً مما ذكرت لك؟ فقال: أيها الملك، كان لي ابن وكنت به معجباً وعليه رقيقاً، فزوجته كريمة من كرائم قومه أمنة بنت وهب، فجاءت بغلام سميته محمداً، فمات أبوه وأمه وكفلته أنا وعمه.

قال ابن ذي يزن: إن الذي قلت لك كما قلت، فاحتفظ بابنك واحذر عليه اليهود، فإنهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً، واطوما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإني لست آمن أن تدخل لهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة، فيطلبون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، فهم فاعلون أو أبناؤهم، ولولا أنني أعلم أن الموت مجتاحي قيل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير بيثرب دار مملكته، فإني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق أن بيثرب استحكام أمره وأهل نصرته وموضع قبره، ولولا أنني أقيه الآفات وأحذر عليه العاهات لأعلنت

على حداثة سنه أمره ولاوطأت أسنان العرب عقبه، ولكني صارف ذلك إليك عن غير تقصير بمن معك.

قال: ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد وعشر إماء وبمئة من الإبل وحلتين من البيروود وبخمسة أرتال من الذهب وعشرة أرتال فضة وكرش مملوء عنبراً. وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك وقال له: إذا حال الحول فائتني، فمات ابن ذي يزن قبل أن يحول الحول.

فكان عبد المطلب كثيراً ما يقول: يا معشر قريش، لا يعطيني رجل منكم بجزييل عطاء الملك وإن كثر؛ فإنه إلى نضاد، ولكن ليغطيني بما يبقى لي ولعقبتي من بعدي ذكره وفخره وشرفه.

فاذا قيل له: متى ذلك؟ قال: سيعلم، ولو بعد حين.

وفي ذلك يقول أمية بن عبد شمس:

عَلَى أَكْوَارِ أَجْمَالٍ وَتُوقِ	جَلْبُنَا الصَّنَحَ نَحْقِبُهُ الْمَطَايَا
إِلَى صَنْعَاءَ مِنْ فَجٍّ عَمِيقِ	مَقْلُفَةً مَرَاتِعُهَا تَعَالَى
بِذَاتِ بَطُونِهَا ذَمُّ الطَّرِيقِ	تَوْمُ بِنَا ابْنِ ذِي يَزْنَ وَتَضْرِي
مَوَاصِلَةَ الدُّومِيضِ إِلَى بَرُوقِ	وَتَرَعَى مِنْ مَخَايِلِهِ بُرُوقاً
بِسَادِ الْمَلِكِ وَالْحَسْبِ الْعَرِيقِ	فَلَمَّا وَاصَلَتْ صَنْعَاءَ حَلَّتْ

فهذا سيد الخلق عليه الصلاة والسلام عبرة لكل معتبر بعلو الهمة.



## شمس الشعر

يقول أبو الطيب المتنبي:  
وكيف يصح في الأذهان شيء  
إذا احتاج النهار إلى دليل

معنى الأبيات: كيف تصح الحقائق في أذهان بعض الناس إذا أنكرت الأدلة إلى درجة أن تقول: هذا نهار، فيقال: ليس هذا بنهار، اضرب لي دليلاً، أو أعطني برهاناً على أنه نهار، فما دامت الحقائق المعلومة تنكر عند بعض الناس إذاً، فلن تصح حقيقة، تلغى الأدلة ولا يبقى هناك دليل للمحاجة، وعليك أن تقطع الجدل مع من هذا شيمته.

وعلى ذكر النهار فإن له أبياتاً في النهار، وفي الشمس على وجه الخصوص، حتى إن مساحة الشمس في شعره كثيرة، فهو يقول:

رَأْتُ وَجَهَ مَنْ أَهْوَى بِلَيْلِ الْعَوَادِلِ      فَقُلْنَا: نَرَى شَمْسًا وَمَا طَلَعَ الشَّمْسُ

يقول: إن عواذلي رأين وجه محبوبي، فلما رأين هذا الوجه المنير قلن: نرى الشمس، لكن الفجر لم يطلع، فكيف نرى الشمس في الليل؟

وله تجرؤ في ضرب الأمثلة إلى درجة أنه أحسن كثيراً، وانتقد كثيراً من بعض النقاد، حتى قال مرة:

نَثَرْتُ دَلَالَاتَ ذَوَائِبٍ مِنْ شَعْرِهَا      فِي لَيْلَةٍ فَارْتُ لِيَالِي أَرْبَعًا  
وَاسْتَقْبَلْتُ بَدْرَ السَّمَاءِ بِوَجْهِهَا      فَارْتَنِي الْقَمْرَيْنِ فِي وَقْتِ مَعَا

وهذا من تشبيهاته ومن أبياته الجميلة، وهذان البيتان في ألف ليلة وليلة، يقول: إنها قيلت في الجاهلية، مع أنها من المتنبي في عهد الإسلام. حتى إن الشمس لشهرتها وبهاؤها عبدت من دون الله ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت: ٢٧] وإن الهدهد أنكر على بلقيس وأهل سبأ أنهم يعبدون الشمس من دون الله، قال: ﴿وَجَدْتُهُمْ وَقَوْمَهُمْ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤] فلجلاء الشمس وظهورها عبدت من دون الله عند بعض القوم، حتى يقول يوشع بن نون في الحديث الصحيح: «إن الله حبس الشمس ليوشع بن نون حتى يقاتل» وهذا في البخاري، وكان نبياً من أنبياء الله ﷺ، فكادت الشمس أن تغرب وهو يلاقي أعداء الله ﷺ، فنظر للشمس، ثم قال: «إني مأمورة وأنا مأمور، اللهم، احبسها علي. فحبسها الله سبحانه وتعالى حتى فتح الله عليه، ثم غابت».

ولذلك بعض الطوائف يقولون: «إن علي بن أبي طالب عليه السلام نام عن صلاة العصر حتى غربت الشمس، فلما قام وصلى قال: «اللهم، رد علي الشمس، فردها الله فصلى ثم غابت».

وهذا تدليس، والحديث لا يصح بحال، وقد اغتر به مثل الطحاوي وغيره. حتى يقول ابن كثير: من اغتر بتصحيح الحديث فعلى مذهب الحريري الذي يقول عن بعض الأعراب: شرب خمراً فسكراً فأخذ يهذي ويقول:

إِنْ كُنْتُ أُدْرِى فَعَلَيْ بَدَنُهُ مِنْ كَثْرَةِ التَّخْلِيطِ أَتَى مِنْ أَنَّهُ

واغتر بعض الناس بمثل هذا، ومنهم أبو تمام. مع العلم أن أبيات أبي تمام من أجمل الأبيات، فهو وظف هذه المعلومات الخاطئة، لكن جماليات الأبيات تبقى، يقول:

فَرَدَّتْ عَلَيْنَا الشَّمْسُ وَاللَّيْلُ رَاغِمٌ بِشَمْسٍ لَهْمٍ فِي جَانِبِ الْخِذْرِ تَلْمَعُ

مَحَاضِوُهَا كَسَفَ الدُّجْمَةِ وَأَنْبَرَى لِبَهْجَتِهَا ضَوْءُ الصَّبَاحِ الْمَرْجَعُ

فَوَاللَّهِ مَا أُدْرِى عَلَيَّ بَدَأَ لَنَا فَرَدَّتْ لَنَا أَمْ كَانَ فِي الْقَوْمِ يَوْشَعُ

فصحيح أن يوشع ردت له، أما علي عليه السلام وأرضاه فلم ترد له.

فمضى الشعراء على هذا، يذكرون الشمس بالعظمة، حتى يقول أحدهم في المكتفي الخليفة العباسي، وقد كان آية من آيات الله في الجمال، وربما ستر وجهه؛ خوفاً من العين، حتى يقول أحد الشعراء فيه:

وَاللَّهِ لَوْ كَلَّمْتَهَا لَو أَنَّهَا كَالْبَدْرِ أَوْ كَالشَّمْسِ أَوْ كَالْمَكْتَفِيِّ

حَلَفْتُ لَنَا أَلَّا تَخُونَ عَهْدَنَا فَكَأَنَّهَا حَلَفَتْ لَنَا أَلَّا تَضِي

فجعل الخليفة العباسي قريناً للشمس والقمر في حسنه، وهذا من الله سبحانه وتعالى، وقد أعطى يوسف شطر الحسن، حتى قال المتنبي في ذلك:

جميلٌ كأنَّ الحسنُ كانَ يحبهُ      فأثره أو زاره في الحسنِ قاسمٌ

وهذا فيه تعدُّ وطغيان، ولكن جماليات القصيدة في جانبها الآخر.

والنابعة الذبياني يقول للنعمان:

فإنَّك شمسٌ والنجومُ كواكبٌ      إذا طلعتْ لم يبدُ منهنَّ كوكبٌ

قال ذلك في قصيدته الماتعة التي من أحسن أبياتها:

ولستُ بمستبقِ أخداً لا تلمهُ      على شعبٍ أيِّ الرجالِ المهذبُ

يقول: إذا لم تقبلنا بعلاتنا وتجاوزت عن أخطائنا البشرية فلن تلقى أحداً مهذباً، لا يوجد في الناس أحد مهذب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، هل يوجد في الناس من هو سالم من العيب أو من الخطأ والزلل؟ لا يوجد أحد، إلا الأنبياء المعصومون، فهذا بيت جميل، وقبله يقول:

حلفتُ فلم أتركْ لنفسك ريبَةً      وليس وراءِ الله للمرءِ مذهبُ

وهذا أحسن ختام.

يقول: حلفت لك بالله، أتريد وراء الله مقصداً؟ هل تعلم أكبر أو أعظم من الله؟ هل تعلم له سميماً؟ ولذلك كانوا يقسمون بالله في الجاهلية، وكانوا يعظمونه، ولكنهم لم يفوا بهذا التعظيم، بل أشركوا معه سبحانه وتعالى في الألوهية، فبعث الله الأنبياء وسيدهم ﷺ لتقرير التوحيد.

وطرفة بن العبد كان يوم قتل عمره ستة وعشرون عاماً، وهي العبقريّة المتمردة الثائرة التي ولدت في حجرها وفي شبابها وفي ريعانها، يقول في قصيدته الدالية:

ووجهٍ كأنَّ الشمسَ حدثتْ رداءه      عليه نقيّ الدونِ لم يتخذدِ

أرى الموتَ يعتامُ الكرامَ وينتقي حليدة ما لفاحش المتشدد

يقول: هذا الموت لا يفرق.. يأخذ الكريم، ويأتي للبخل الذي يكنز الأموال  
ويأخذه على طريقه. ثم يقول:

وَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ عَيْشَةِ الْفَتَى وَحَقِّكَ لَمْ أَحْضِلْ مَتَى قَامَ عُودِي  
فَمَنْهَنْ سَبَقُ الْعَادِلَاتِ بَشْرِيَّةٍ كَمِيتٍ مَتَى مَا تَعَلَّ بِالْمَاءِ تَرْبِدِ

إلى آخر ما قال.. وقد سمع عمر بن عبد العزيز بهذا.. لأن هذا منطق  
الجاهلية، يقول: لولا ثلاث في الحياة كنت وددت أني أموت، لأن طرفة جاهلي:  
المرأة الحسنة والخمر وأن يلاقي العدو.

فملافة العدو يعني أن هناك سفكاً للدماء.

قال عمر بن عبد العزيز في منطق أهل الإيمان.. منطق الربانية.. منطق  
العلم النافع والعمل الصالح.. الخليفة الزاهد المجدد.. قال: وأنا والله لولا ثلاث  
لم أحضل متى قام عودي، فمنها: تمرغ وجهي في السحر داعياً لربي، ومجالسة  
أفوام ينتقون أطايب الحديث كما ينتقى أطايب التمر، ومزاحمة العلماء بالركب  
في حلق الذكر.. أو كما قال.

فهذا هو منطق أهل الإيمان، وذاك منطق أهل الجاهلية.

وأحدهم يمدح قومه فيقول:

نَحْنُ وَجْهُ الشَّمْسِ إِسْلَامٌ وَقُوَّةٌ نَسَبٌ حَرٌّ وَمَجْدٌ وَفَتْوَةٌ

فإذا مدحوا أحداً جعلوه مثل وجه الشمس أو ارتفاع الشمس.

ونزار قباني يقول:

اركبِي الشمسَ يا دمشقُ، حصانًا      حسبُكَ اللهُ حافظًا وأميدًا

في قصيدة له طويلة.

فهم يجعلون الشمس منتهى المجد الذي يصل إليه الإنسان، فأحياناً ينكر  
الإنسان الحقائق، ولو كانت مثل الشمس، حتى يقول البوصيري:

فَدَتْنَكُرُ الْعَيْنِ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ      وَيَنْكُرُ الضَّمُّ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمٍ

العيب ليس في الشمس إنما العيب في العين، فالعيب في المتلقي وليس في  
الدليل الذي أمامه أو في البرهان، تعرض له الآية.. الحديث.. الواقعة.. الحادثة..  
تشرح المسألة.. فيقول لك: لم أفهم، هذا خطأ. والحقيقة أن الخطأ فيه، هو  
المعوج، حتى يقول أبو الطيب المتنبّي:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مَرًّا مَرِيضٍ      يَجِدُ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَا

فالمرارة التي فيه حولها للماء، ثم اتهم الماء أنه مر وهو ليس بمر، يقول أحدهم:

فَقُلْ لِلْعَيُونِ الرُّمْدُ: لِلشَّمْسِ أَعْيُنٌ      تَرَاهَا بِحَقِّ فِي مَغِيبٍ وَمَطْعٍ

وسامح عيوناً أظفأ اللهُ نورها      بأهوائها لا تستفيقُ ولا تعي

وبشار بن برد يمدح قومه، فيقول:

إِذَا مَا غَضَبْنَا غَضْبَةً مُضْرِبَةً      هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تَقَطَّرَ الدَّمُ

يقول: تصل سيوفنا إلى الشمس، نغطي الشمس بسيوفنا.

حتى يقول زهير مادحاً أبناء هرم بن سنان:

لَوْ كَانَ يَقْعَدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ      قَوْمٌ بِأَبَائِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعْدُوا

مَحْسُدُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نَعَمٍ      لَا يَنْزِعُ اللهُ مِنْهُمْ مَا لَهُ حُسُدُوا

وهذا آخر المدح، يقول: لو كان هناك أناس من البشر بكرمهم ومجدهم يجلسون على الشمس، لأنتم أولى يا أبناء هرم بن سنان، أن تجلسوا على بساط الشمس، وإنما قال الشمس؛ لأنها أرفع ما يكون عند العرب وأبهى ما يكون وأجمل ما يكون.

فعلم في المسألة قول المتنبى:

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

فإذا وصل الإنسان عنده من الحيرة وتبلد الإحساس والغفلة والغباء أنك تقرر له الحقائق المعلومة وتظهر له البراهين والأدلة فيتعاضى ويتجاهل وينكر ما هو معلوم من الدين والعقل بالضرورة، فاذا ذكر كفارة المجلس وأنه الكلام معه.

وكعب بن الأشرف لما أنكر نبوة رسول الله ﷺ، سأله أهل مكة: نحن أهدى أم محمد؟ قال: لا، أنتم أهدى. فانتهى الحوار معه في القرآن، قال سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ [النساء: ٥٢] فهو ملعون؛ لأنه ينكر الحقائق والبراهين. أهل الوثن وأهل الصنم والخرافة والقتل والسفك والسرقعة والسلب أهدى من صاحب المحجة البيضاء والدليل والبرهان والهداية الربانية؟ سبحان الله! أين عقله؟ كيف يكون الحوار بعد هذا؟

هذه هي نهاية الغباء والحمق والعياذ بالله، ولذلك قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَلَّوْا هُنَالِكَ الْكَلْبَةَ الْكَلْبَةُ بِأَلْسِنَتٍ لَّيِّقَةٍ يُقْبَلُونَ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ [النساء: ٥١] فألقى الأدلة كلها معهم وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ [النساء: ٥٢] فإذا لعن الإنسان، فلا يقبل الحق ولا يستمع لدليل ولا يمكن أن يقرأ البرهان، فينتهي الموضوع معه.

فقصدي بهذا أن المتنبى أحسن بهذا، فالحقيقة أن البيت صار مثلاً رائداً وصار شائعاً، ومن ثم اكتسب المتنبى هذا الشيوع والذيع؛ لذا تجد شيخ الإسلام ابن تيمية يستشهد بقوله عندما يعارضه خصومه، فيقول:

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وفي حوار مع الغزالي أتى بمثل هذا، وابن الجوزي وغيره من العلماء، كل يختتم مجلسه بقول المتنبى ذلك.

الحوار والمناقشة العلمية تجلية لمسائل غامضة فيها لبس، أما أن تأتي وتقرر للناس مسائل معلومة بالضرورة، فتقول لهم: السماء من فوق والأرض من تحت.. فيقول لك: أعطني دليلاً فقل له: اعذرني.. لا أستطيع أن أوصل معك الحوار.

هذه بعض الاستطرادات عن الشمس التي نتفياً بشعاعها وتغمرنا بنورها وبهائها، والإنسان يقرأ عظمة الباري في هذه الشمس التي هي مثل الأرض أربعين مرة وقيل أكثر من ذلك بكثير، وهذه الدراسة قبل ثلاثين سنة عند علماء الفلك.

فصبحان الذي خلق الشمس، قال سبحانه: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آتِلُ سَابِقَ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠] وقال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

وعلى ذكر الشمس، استطراداً:

فللشمس أحكام في الشريعة الإسلامية:

ففيما يروى عن النبي ﷺ، وهو حديث يقبل التحسين: «أن النبي ﷺ رأى رجلاً اسمه أبو إسرائيل جالساً في الشمس، قال: من هذا؟ قالوا: هذا أبو إسرائيل، نذر أن يقوم ولا يقعد وألا يتكلم وأن يجلس في الشمس، قال: مروه فليستظل وليتكلم وليتم صومه».

فالنبي ﷺ أقره على مواصلة الصوم ومنعه من أمرين حادثين ليس لهما أساس، وهما: السكوت دائماً، والبقاء في الشمس.

وكسفت الشمس في عهد النبي ﷺ لما مات ابنه إبراهيم عليه السلام، ولو كان غيره ﷺ من أهل الدنيا وأهل الجاه وأهل التناول والعلو في الأرض لكان اهتبلها فرصة ووظف الحدث؛ لأن بعض العامة قالوا: كسفت الشمس لموت إبراهيم، يعني اهتز الفلك وتغير الكون، حتى كسفت الشمس لموت إبراهيم ابن النبي ﷺ لمكانته ولما له من فضل، فكسفت من أجله الشمس، لكنه ﷺ جمع الناس، وقال: «إن الشمس والقمر لا تكسفان لموت أحد ولا لحياته، إنهما آيتان من آيات الله يخوف الله بهما من يشاء».

فانظر إلى التجرد والتواضع والصدق والإخلاص والصرامة منه عليه الصلاة والسلام.

ونهى ﷺ عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، تلك اللحظة؛ لأن الكفار كانوا يسجدون لها، فنهانا عليه الصلاة والسلام أن نشابههم.

وفي حديث مسلم عن عقبه بن عامر: «إذا أصبحت الشمس في كبد السماء قبل الزوال فإنه قام قائم الظهيرة» فعند ذلك لا تصل حتى تزول قليلاً. هذه أحكام مختصرة من أحكام الشمس.

وأبو تمام رأى أن الشمس أحياناً تحجب بالغيث، فقد أتى إلى المعتصم فتأخر والحاجب لم يدخله؛ لأنه كان هناك حجاب وحراسة في تلك العصور، فقال:

ليس الحجاب بمقص عنك لي أملاً  
إن السماء ترجى حين تحتجب

يقول: ما ترجى السماء إلا إذا احتجبت بالغيوم فيأتي الغيث، فأنت ما دمت احتجبت علينا فسيأتينا خير منك مثلما أن الشمس تحتجب بالسحاب، فهذا دليل على أن الغيث والمطر سوف ينزل. وهذا طبعاً من مبالغة الشعراء.

وهذا من أجمل أبياته، وهي مشهورة وهي سبعون بيتاً، قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة: أعطاه المعتصم على كل بيت ألف دينار. يعني كأنها في زماننا الآن: مليون.

فيقول فيها:

السيفُ أُصدقُ أنباءً من الكتبِ      في حدهُ الحدُّ بينَ الجِدِّ واللعبِ

وعبد الله البردوني شاعر اليمن المعاصر عارضه بقصيدة، لكنه رفع القافية الباء، يقول:

مهلاً- فُديتْ- أبا تمامٍ تسألني      كيفَ احتفتُ بالعدا حيفا أو النقبُ  
ماذا فعلنُ أأغضبنا الرجالَ ولم      نصدقُ وقد صدقَ التنجيهُ والخطبُ  
وأطفأتُ شهبَ النيرانِ أنجمنا      وشمسنا وتحدتْ نارها الخطبُ  
وقاتلتُ دوننا الأبوابُ صامدةً      أما الرجالُ فماتوا ثم أو هربوا

إلى أن يقول:

مهلاً ستصغي لنا الدنيا بأكملها      إن السماء تُرجى حين تحتجبُ  
فأتى بهذا التوظيف لأبي تمام.

الشاهد: إن الناس يستبشرون إذا احتجبت الشمس واستترت بالغييم، قالوا: هذا بشير خير وبشرى، إن شاء الله سينزل الغيث.

والمتنبي استخدم الشمس كثيراً في ديوانه، أكثر من ثلاثين مرة، يقول عن سيف الدولة:

الشمسُ من حساده والنصرُ من      قرنائهِ والسيفُ من أسمائه

يقول: إن الشمس تحسد سيف الدولة وانظر إلى المبالغة التي ليس لها حد ولا أساس، والنصر من أصدقائه وجلسائه، والسيف من أسمائه؛ لأن اسمه سيف الدولة.

أَيُّنَ الثَّلَاثَةِ مِنْ شَلَاتِ فَخَارِهِ مِنْ عَزَّةٍ وَجَمَالِهِ وَبِهَائِهِ

يقول: هو أكثر من الشمس بهاءً، ومن النصر بقاءً، ومن النصر مضاءً، وهذه من المبالغات.

الشمسُ مِنْ حَسَادِهِ وَالنَّصْرُ مِنْ قَرْنَائِهِ وَالسَّيْفُ مِنْ أَسْمَائِهِ

أَيُّنَ الثَّلَاثَةِ مِنْ شَلَاتِ فَخَارِهِ مِنْ حَسَنِهِ وَإِبَائِهِ وَمُضَائِهِ

مَضَبَتِ الدَّهْوَرُ وَمَا أُتِينُ بِمِثْلِهِ وَلَقَدْ أَتَى وَعَجَزُنْ عَنْ نَظَرِيهِ

أما هذه فلا تكون إلا في الرسول ﷺ، أما سيف الدولة فلا، أتى مثله وسبقه ملوك وأتى بعده ملوك ومثله حكام ألوف، وقبلة وبعده، أما سيد الخلق ﷺ فإنه النبي الخاتم والمعصوم، وأشرف خلق الله، وأبر من خلق الله، وهو أطهر وأحلم، عصم الله قلبه، وزكى فؤاده، وسدد كلامه، وصحح منهجه، وطهر ضميره، وحفظه وتولاه وأنعم عليه، وجعله هو الخاتم والشفيع المشفع، صاحب الحوض المورود واللواء المعقود والمقام المحمود، فماذا نقول؟ نكتفي أن نقول: صلى الله وسلم عليه، إن أحسن ما تفعله إذا أتيت عند هذا المقام أن تكثر من الصلاة والسلام عليه ﷺ؛ ولذلك يقول ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم إنما أنا عبد الله ورسوله فقولوا: عبد الله ورسوله» ولما مدحه بعض الوفود قال: «أيها الناس، قولوا بقولكم أو ببعض قولكم» فصلى الله وسلم عليه ما ذكره الذاكرون، وما غفل عن ذكره الغافلون.

فالذي أعظم من سيف الدولة هو محمد سيد الخلق ﷺ، إذا ذكر محمد ﷺ فلينصت الدهر ولينوقف التاريخ ليكتب ولينواضع الزعماء وليخشع العلماء وليسكت الأدياء وليخرس المتكلم؛ حتى تنتهي عن وصفه عليه الصلاة والسلام، فهو ﷺ ليس بحاجة لوصفنا، فهو عبد الله ورسوله، رفعه سبحانه وتعالى، والله أتى عليه قبل أن

يشي عليه المشنون، حتى يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [الفلم:٤] بالله ما اذا يجدي مدح شاعر الآن أو كاتب في رسول الله ﷺ، والواحد الأحد فوق العرش سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [الفلم:٤] عظيم خلقك، عظيم صبرك، عظيم تواضعك، عظيم كرمك، الله يزيكه ويقول له: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِن حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، ويقول له: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]، يقول: سوف يبعثك يوم القيامة مقاماً محموداً وهو موقف الشفاعة التي يغبطه الأولون والآخرون عليها - بأبي هو وأمي ﷺ - حتى تأتي كل الأنبياء يعتذرون من الشفاعة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، كل يقول: نفسي نفسي، فيأتي الخلائق كلهم: أمة نوح وأمة إبراهيم، وأمة موسى، أمة كل نبي وأمة عيسى عليهم السلام، فيقولون: «يا رسول الله، اشفع لنا، اشفع لنا عند ربك يقضي بيننا هذا اليوم، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما أصابنا؟ قال: أنا لها أنا لها، فيأتي ﷺ ويسجد تحت العرش ويفتح الله عليه من الثناء والمحامد، فيقول له ربه: ارفع رأسك، وسل تعطى، واشفع تشفع».

هو نبي معصوم عليه الصلاة والسلام، وضع به المحجة وقام الدليل ودخل دينه في كل مكان وسمعت منه العجوز، مثلما سمع منه الملك، مثلما سمع منه الأمير، مثلما سمع منه العالم، كما قال أبو الطيب:

خذ ما رأيت ودع شيئاً سمعت به      في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

جاءتك الشريعة الإسلامية المحمدية الخالدة، وتبحث عن آراء سقراط وبقرط وجالينيوس الذين ما اهدتوا أصلاً، ضلال في ضلال، هم في التخمين والشك وأتانا نور ساطع على يدي رسول الله ﷺ.

فالمتمتبي شاعر بلا شك لكننا لاحظنا عليه كغيرنا ملاحظات؛ لأنه بشر يتكلم ببشريته وليس بنبي معصوم، ولو أننا نعترف بقدرته وبعبقريته وبلموعه

ولذلك سميناه الأسطورة، فأنت تجريه كما أردت؛ لأنك تأخذ منه الحكمة والمديح والهجاء، ولكنني أوصي من يطالع ديوان هذا الرجل أن يحاكمه إلى الشريعة، وأن يأخذ منه ما وافق الكتاب والسنة، وأيضاً يستفيد من إبداعاته وفصاحاته في أسلوبه في كتابته، وقصدي هذا القارئ إذا كتب إذا خطب، إذا وعظ، إذا حاور، فإن له فرائد من الأبيات سارت بها الركبان وشهد له العلماء وأقر له النقاد، حتى كان عند الكثير منهم الشاعر الأول في مجموع الشعراء، لا أعلم شاعراً في الإسلام ولا في الجاهلية سار شعره في الناس وسارت حكمه على المنابر وفي بطون الدفاتر وحمله أصحاب المحابر مثل هذا الرجل.

وتعجيني كلمة لابن حزم الظاهري أبي محمد علي بن أحمد من أهل الأندلس، المجدد في علم الحديث والأثر، وهو عبقري بلا شك لولا بعض الأخطاء التي لا يسلم منها البشر، وهو صاحب المحلي، وهو أديب موسوعي نظار.. محدث.. يقول:

وإني تشمس في السماء مضيئة ولكن عيبي أن مطلع الغرب

فهو من الأندلس نشأ هناك، يقول: أنا لست من المشرق، وإنما جئت خلاف ما تأتي عليه الشمس، فالشمس تأتي من المشرق، وأنا جئت من المغرب.

والعظماء والعباقرة دائماً يجدون أحياناً قهراً اجتماعياً وعدم اعتراف من الآخرين، فيجعل الواحد منهم يعبر عن نفسه بنفسه، وبعضهم ينتظر أحداً يمدحه، فإذا لم يجد أحداً يمدحه استعان بالله سبحانه ومدح نفسه.

ويقول أحدهم في ممدوحه:

إذا حل الشتاء فأنت شمس وإن حل المصيف فأنت ظل

ولا يُندري من التجويد يوماً أيكثر في عطائك أم يقل

يقول: أنت لاندري عن عطائك، هل تهب كثيراً أو لا من كثرة السماحة وكثرة العطاء، فأنت عندنا مثل الشمس في الشتاء. فالشمس في الشتاء من أحسن ما يكون.

وقد قرأت لأحد السجناء الذين سجنوا ما يقارب خمسة عشر عاماً، وهو من المفكرين المعاصرين الكبار، يقول: كنا في الحبس لانرى الشمس، فكان في الباب ثقب في جهة المشرق، فينسل منه كالدرهم علينا، فكنا نتأوب نحن السجناء سريعاً قبل أن ترتفع الشمس فيختفي هذا الضوء من ثقب الباب، حتى نجعله على أجسامنا، علنا ندفعاً لا يجدون الشمس إلا في هذه المدة، الدقائق البسيطة، تتعش أجسامهم، ثم يقول: وأنتم أيها الأحياء، الذين خارج السجن، أنتم تسبحون في نهر الشمس وفي ضوء الشمس وفي شعاع الشمس وذهب الشمس.. ألا تشكرون رب الشمس سبحانه وتعالى، سبحانه الذي أعطانا الضياء والهواء والماء والغذاء والدواء وسخر لنا جميع الأشياء، وأعطانا من كل ما سألناه تعالى رب الأرض والسماء. وهذا من نعم الشمس التي نراها!

وحدثنا مفتي ألبانيا يقول: سجنه الشيوعيون في يوغسلافيا، وكان الرئيس هذا اسمه تيتو، سجنه عشرين سنة تحت الأرض، يقول: لم أر الشمس عشرين سنة، مع الأعمال الشاقة، حتى إن أظفاره كانت محدبة من كثرة ما كان يعمل في الأعمال الشاقة، قال: كنت إذا أردت أن أصلي فإنني أختفي عن الجنود الشيوعيين، وأدخل في طرف غرفة، قريباً من دورة المياه، فأصلي الصلاة سريعاً؛ لأنه كان صاحب عقيدة وصاحب إيمان، ثم أخرجه سبحانه وتعالى.

فانظر لهذه المشاهد التي نراها الآن ولا نتفكر، وسبحان الله فكثير من الناس لا يتفكر، وإلا فإن الشمس آية عظيمة على قدرة الباري جل في علاه لا إله إلا هو، يقول سبحانه: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ [يس: ٤٠] ففي حسيان الواحد الأحد أنه لا يمكن يوماً من الأيام أن تصطدم الشمس بالقمر، لا يمكن هذا، كما قال القائل:

فَإِذَا تَلَّهَكَ الدُّنْيَا بِلَهْوِ فَإِنَّهُ يَعَاقُ مَسِيرُ الشَّمْسِ بِالدُّورَانِ

يقول: أحياناً يأتي نجم كبير فيعوق الشمس فيأتي الكسوف، عند بعضهم،  
وبعضهم يقول: إن الأرض تحل بين الشمس والقمر، فقلت في هذا آياتاً:

لا تلهك الدنيا بل هو فإنه يعاق مسير الشمس بالدوران  
فقد هدّ قديماً عرش بلقيس هدهد وخرب فأر ما بنى اليمنان

لأن صاحب اليمن لما بنى سد مأرب خربه الفأر، والهدهد دل على مملكة بلقيس، وهذا من تفاهة الدنيا، والبعوضة قتلت النمرود بن كنعان، والذباب تحدى الله به العالم، والحمار جعله الله وصفاً لأعدائه، والكلب جعله وصفاً للعالم السوء.

فهذا يبين لك ببساطة كيف يهدم الله سبحانه مجد الظلمة والطغاة بأشياء بسيطة من الحيوانات والزواحف والحشرات، حتى تحداهم سبحانه وتعالى بالذباب، وجعل المنكبوت مثلاً لقوتهم وقدرتهم، فسيحان القادر، لا إله إلا هو!

يقول: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آيِلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤١].

فكل بحسبان، وكل بأجل مسمى، وكل بمنازل معلومة محسوبة محدودة معدودة، حتى إن أينشتاين المشهور صاحب النظرية النسبية يقول: إن من ينظر إلى الكون فينظر إلى إبداعه وينظر إلى تناسقه وجماله يعلم أن مبدعه حكيم سبحانه لا يلعب بالنرد.

والنرد هي اللعبة المعروفة، تتفق أو لا تتفق، لا كل شيء بحسبان، ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨] فالعزيز العليم بعزته سبحانه حكم، ولعلمه قضي بإتقان وإحسان وإبداع في الكون، فغزة بلا علم فيها هوج وطيش في غير صفات الله، وعلم بلا عزة ضعف، ولا تكون العزة والعلم إلا لله سبحانه وتعالى.

يذكرون أن الشمس اشتد ضياؤها مرة في عهد النبي ﷺ واشتدت الحرارة على الناس وأصابهم قحط بسبب شدة الشمس، فلا سحاب ولا غيم في السماء، ولا موسم لنزول الغيث؛ لأنه في شدة القيظ والصيف، فرسول الله ﷺ كان يخطب الناس في خطبة الجمعة، فدخل أعرابي من باب المسجد، فصاح بأعلى صوته.. والرسول ﷺ يتكلم عن الإيمان ويرسخ العقيدة في قلوب الناس، لم يتكلم عن الغيث عليه الصلاة والسلام أو القحط، فنادى بأعلى صوته: «يا رسول الله، - وقيل لجفائه قال: يا محمد، - جاع العيال، وضاع المال، وتقطعت السبل، فادعُ الله أن يغيثنا، ففضى ﷺ كلامه، ثم قال: اللهم، أغثنا اللهم، أغثنا اللهم، أغثنا» بيديه الطيبتين المباركتين، فما هي إلا لحظات حتى فار كاترس من جبل سلع المعروف، فغطى المدينة وغشاها وأبرقت وأرعدت وأزبدت وهلت غيثاً، فنزل الماء في لحظة وصب الماء من على وجه النبي ﷺ الشريف، وكان يقول: «أشهدُ أني رسولُ الله».

فنشهد أنه ﷺ رسوله ونبيه المصطفى وخليفه، إنما قلت هذا على سبيل ذكر الشمس.



## المتنبئ في الميزان

محاكمة المتنبئ تعني النظر إلى معانيه،  
فسوف نضعه أمام العدالة، لكننا لن نظلمه ولن  
نبخسه حقه، فقد اعترفنا له كمعظم النقاد  
بأنه مبدع، اعترفنا بأنه عبقرى، اعترفنا بأنه  
إمبراطور الشعراء، أنه قائدهم، أنه متفوق عليهم  
بلا شك، وجئنا بمحاسن شعره وبحكمه، ولكن  
وجب علينا أن نقف معه وقفة؛ لأنه تجاوز الحد  
في بعض الأبيات وطغى به فرسه وجمع به، وزل  
به قدمه، فخشية أن يعتر الجيل ببعض الأبيات  
في ديوانه أردت أن أعقد مناظرة ومحاكمة له

بإنصاف وبعدل فلا نعلمه؛ لأنه ليس عالم شريعة حتى يعرف الخطوط المرسومة والخطوط الحمراء، وليس هو طالب علم وإنما أراد الشهرة وأراد الدنيا وعنده ملكة في الشعر، وعنده قوة وعنده فصاحة وبلاغة، فتجاوز في كثير من الآيات ولذلك نبه عليها الأدباء، حتى بعض النقاد الكبار من غير علماء الشريعة، نبهوا على تجاوزاته هذه، ومن ضمنها قوله في بعض الآيات:

يَتَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ هُنَّ فِيهِ أَحْلَى مِنْ التَّوْحِيدِ

وهذا عند الكثير أنه يقصد التوحيد الذي هو الدين والشريعة، توحيد الله سبحانه وتعالى الذي بعث الله به أنبياء ورسله عليهم الصلاة والسلام، وقال بعضهم: إنه لا يقصد التوحيد الذي هو الإيمان، بل يقصد نوعاً من التمر في العراق اسمه التوحيد، وقيل العنب من أسمائه وهذا بعيد، وقيل المسكر، وبعضهم حمله على محامل أخرى، لكن الظاهر المتبادر للذهن أنه يقصد التوحيد الذي هو الإيمان، سبحانه الله هذه الرشفات التي في فمه أحلى من التوحيد الذي بعث الله به رسله عليهم الصلاة والسلام، وهو حق الله على العبيد، ولذلك - حتى ولو كان يقصد تمراً مثلاً أو يقصد خمراً أو يقصد عنباً - لا يجوز الإيهام على الناس في مثل هذه الألفاظ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا﴾ [البقرة: ١٠٤] فلما كان اللفظ موهماً، (راعنا) مثل انظرنا، أي: انتظرنا وراعنا أي: اصبر علينا، لكن اليهود لما استخدموه استخداماً آخر، فقالوا: راعناً، يعني: من الرعونة والحمق، أمر الله عباده المؤمنين ألا يأتوا بهذا اللفظ؛ لأنه ملتبس، فإذا كان اللفظ فيه شبهة، فلماذا تقف عنده؟ لماذا تحير الناس؟

القارئ البسيط والمبتدئ يفهم أنك تقصد التوحيد الذي هو أعظم الرسالات المنجية من غضب الله وهو الذي يدخل العبد في جنات النعيم، وهو دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهو الذي تقوم به شرائع، وهو حق سبحانه وتعالى على الخليقة، فهذا مما أخذ عليه، ونقول: إن كان يقصد هذا، فلماذا ما اختار اللفظ؟ المتنبئ مقتدر على صنع الحرف وعلى إبدال الجمل فلماذا يقف عند هذه؟

ثم انظر إلى قصيدة أخرى يقول:

أبداً أقطع البلاد ونجمي      في نحوس وهمتي في سعوود

يقول: أنا أمشي دائماً من بلدة إلى بلدة ومن موطن إلى موطن، لكن العجيب أن نجمي في نحوس، فكأنه يأخذ بتأثير النجوم، «ومن تعلم شعبة من النجوم تعلم شعبة من الشرك زاد ما زاد» كما ورد عن سيد الخلق ﷺ، فالذي يؤمن بأن النجوم مؤثرة فهو مخطئ ضال منحرف عن منهج الله ﷻ وهي شعبة من الشرك لمن يتعلمها ويرى تأثيرها في الناس، حتى إن أبا تمام - ولو أن المتنبى أشعر منه في الجملة - أقرب إلى الدين والهداية منه؛ فهو يقول:

أين الرواية أم أين الدراية كم      صاغوه من زخرف فيها ومن كذب  
بهارج وأحاديت منمقة      ليست بنبيع إذا عُدت ولا غرب

يقول: المنجمون قالوا للمعتصم: لا تغر، فخالفتهم أنت وغزوت، قال: هذا كله تدليس وكله كذب، لكن انظر لهذا يقول: (أبداً أقطع البلاد ونجمي في نحوس) يعني: مشؤوم منحوس، لا يتفق له شيء، فلا يوفق ولا ينجح. قال: (وهمتي في سعوود) فهو سعد، يمدح همته يقول: أنا ما قصرت من جانبي، لكن حظي أن نجمي هكذا؛ لأن بعض الجهلة والضلال يرون النجوم تؤثر في الناس، ثم العجيب أنه متناقض في قصيدة ثانية يرد على أهل النجوم، ويقول:

فتباً لدين عبيد النجوم      ومن يدعي أنها تعقل

يقول: كذبهم الله وخيب سعيهم، الآن يناقض نفسه في قصيدة ثانية. يقول: هي لا تعقل ولا تدري، كما يقول أبو تمام:

يقضون بالأمر عنها وهي غافلة      ما دار في فلك منها وفي قطب  
لو بيئت قط أمراً قبل موقعه      لم تخف ما حل بالأصنام والنصب

يقول: لو أنها تبين لعلمت الروم أن المعتصم سوف يغزوهم ويدوسهم بالخييل، فإنه يقول: يقضون عنها وهي غائبة. النجوم زينة للسماء ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ورجوم للشياطين، ثلاث فوائد، أما من يعلق عليها غير ذلك فقد أخطأ وافتري على الله وكذب وأساء، فهنا رجع يقول:

(فتباً لدين عبيد النجوم) الذين يظنون أنها تؤثر، يقول: خيب الله سعيهم، سحقا لهم، هي لا تؤثر أبداً وهو في البيت الأول يقول: إنها تؤثر، (ونجمي في نحوس)، ثم يقول: ومن ادعى أنها تعقل فقد ضل؛ فهذه مخلوقات من مخلوقات الله ﷻ، لا تؤثر في الحمل، لا تؤثر في الحظوظ، لا تؤثر في الأرزاق ولا في الإنجاب ولا في شيء، هي مخلوقة كالجبال والشجر، يقول في بيت آخر من قصيدة أخرى- وانظر الطغيان والجموح، والإنسان إذا ما لم يكن عنده رابط من وعي ومن عقل ومن إيمان ومن شريعة، فإنه يتجاوز الحد- يقول:

فاطلب العز في لظى وذر الذل ل ولو كان في جنان الخلود

يقول: اطلب العز في الدنيا ولو كان في جهنم، همه فقط الرئاسة الدنيوية، الشهرة، الظهور، الصدارة في الناس، لا والله بل يُطلب رضا الله وطاعته سبحانه وتعالى ولو كان الإنسان خادماً، ولو كان ينام على الرصيف، ولو كان يحمل الحطب على ظهره، أهم شيء أن يرضي الله؛ لينال جنات النعيم. فما يوصلك إلى الجنة إلا كل عمل طيب، وليس الذل هذا؛ لأن العمل الصالح الذي يوصلك إلى الجنة كله خير ورفعة، ومهما يقيم به الإنسان؛ بأي خدمة شريفة فإنه في عز، لكن هو انعكست عنده الأمور، يريد الشهرة الظاهرية وشرف الدنيا، وجاء الدنيا، فنسي تلك المنازل، فذلك عاد يتجاوز ويجمع به جواده حتى لامه السقاف صاحب العود الهندي في شرح مجالس الكندي، الكندي: يقصد أبا الطيب المتنبي؛ لأنه من كندة هو، اسمه: أحمد بن حسين الكندي، فشرح له بكتاب العود الهندي الذي هو من أجمل كتب الأدب على الإطلاق، وهذا عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف



## المتنبي في الميزان

من حضرموت توفي قبل خمسين سنة، كتابه في ثلاث مجلدات، فلامه وبكت المتنبي في هذا، يقول: كيف تطلب العز في جهنم، بل العز يكون في طاعة الله الموصلة إلى رضوانه وجناته، فهذا أخطأ فيه، ونرده ونقول للجيل: انتبهوا لأبيات عند المتنبي ما يقارب مئة بيت قموا عندها ولا تعتروا بها، يكفي أنه أبدع في مئات الأبيات، لكن هذه نحذر عندها.

يقول في القصيدة نفسها:

أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارِكُهَا الدُّهُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودٍ

يقول: إن الأمة تداركها الله بالمتنبي.

وهذا خطأ، فإن الذي أنقذنا الله به هو محمد عليه الصلاة والسلام، وهو النبي المعصوم المؤيد بجبريل عليه الصلاة والسلام، أما المتنبي فشاعر من الشعراء ويجهل كثيراً من قضايا الدين، بل لو تسألته عن سجود السهو، هل هو قبل السلام أم بعده، ربما لا يعرف ذلك، وما يحفظ كثيراً من القرآن، الرجل مهموم بالشهرة وعنده إبداع في القافية وعنده تلاعب بالألفاظ وعنده قوة في الفصاحة والبلاغة، لا ننكر ذلك فهو سيد الشعراء، أما في الشرع فلا، ثم ما هو مردود المتنبي على الأمة؟ فلو لم يكن المتنبي موجوداً، فماذا سيضير الأمة؟ حتى إن ابن تيمية يقول: لو ما خلق الله البخاري ومسلم لم ينقص من الدين شيء، دين الله تام، ودين الله كامل، بل نزل على الرسول ﷺ في عرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3] قبل الأئمة الأربعة وقبل أن يأتي البخاري ومسلم، فضلاً عن المتنبي الذي هو شاعر لم يشتغل بعلوم الشريعة، ولم يحفظ القرآن، ولم يقرأ الحديث، فكيف يكون غريباً كصالح في ثمود؟ يقصد النبي صالحاً عليه السلام في قومه ثمود، وهذا غاية البطلان والخسران والخذلان، فقد رفع الله قدر أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام.

وأنى يمدح رجلاً آخر، وانظر الآن إلى الطغيان والجموح، يريد الجائزة، يخلع قلب الممدوح هذا؛ لكي يعطيه أي شيء من الذهب، اسم الممدوح محمد قال:  
 لَمْ يَخْلُقِ الرَّحْمَنُ مِثْلَ مُحَمَّدٍ أَبَدًا وَظَنُّنِي أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ  
 أَي: وظني أنه لن يخلق مرة ثانية.

تعالى الله سبحانه وتعالى. أولاً: قد خلق الله من هو خير من هذا الرجل وهو سيد الخلق ﷺ محمد، وأنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، والخلفاء الراشدون، والصديقون، والشهداء والأولياء والعباد الزهاد، أما قد خاب ظنك وأخطأ حدسك، بل الله سبحانه وتعالى له الحكمة المطلقة، وله المشيئة وهو على كل شيء قدير، وأنت لا تعرف الناس، وأنت أجهل من أن تتحكم في القدرة، وتقوم آلاف السنوات التي مرت ومليارات البشر الذين فيهم البر والراشد وفيهم الصالح والطالح، فالواجب أن يؤدب على مثل هذا الممدح.

ويمدح رجلاً آخر، فقال:

أَلَا كُلُّ سَمَحٍ غَيْرِكَ الْيَوْمَ بَاطِلٌ وَكُلُّ مَدِيحٍ فِي سِوَاكَ مُضِيعٌ

بل مدح الله ﷻ ليس مضيعاً وهو الأعظم، وعند مسلم في الصحيح: «لا أحد أحب إليه المدح من الله» ولذلك مدح نفسه سبحانه وتعالى، وعند الإمام أحمد عن الأسود بن سريع في المسند: «أما إن ربك يحب المدح».

والذي يستحق المدح أيضاً بعد الله ﷻ أنبياء الله ورسله والأخيار، لكنه الجموح وطغيان اللفظ وعدم مراقبة الله ﷻ فيما يقول.

ويقول في بيتين له ثانيين:

## المنبج في الميزان

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُوْمَلُّهُ      وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أَحَادِرُهُ  
لَا يَكْسِرُ النَّاسُ عِظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ      وَلَا يَهْيِضُونَ عِظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ

وهذا هو غاية الخذلان، يقول لبشر: إني ألوذ بك فيما أوْمَله، ولا يلاذ إلا بالله، ولا يُسأل إلا الله، ولا يعاد في الملمات إلا للواحد الأحد؛ لقوله ﷺ عند الترمذي وأحمد: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف». فهذا مما تجاوز فيه، يقول ابن تيمية لما سمع البيتين هذين: إني أدعو بمضمونهما في سجودي لله رب العالمين، يعني: بمعناهما، فكيف هذه التي لا تصلح إلا للواحد الأحد؟ كيف يأتي هذا البشر فيصرفها لبشر مثله لا يملك ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وهو يمدح ممدوحاً آخر ويتجاوز أيضاً ويستمر في الطغيان اللفظي وفي الجنوح المعنوي يقول:

يَا مَنْ نَلُوذُ مِنْ الزَّمَانِ بِظُلْمِهِ      أَبْشَدُ وَنَطْرُدُ بِاسْمِهِ إِبْلِيسَا

يقول: إذا داهمنا الخطر، ووقعت بنا ملمات من الدهر - على مذهب الدهريين - لذنا بك، يقصد ممدوحاً لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، مخلوق ضعيف بشر، لكن انظر إلى المجاملة الزائدة والإفراط في المدح إلى درجة المحرم، تجاوز الحد في الشرع؛ فلا يلاذ إلا بظل الواحد الأحد، فإنه لا ينفع ولا يضر إلا هو سبحانه، ولا يكشف البلوى إلا هو جل في علاه.

ولا يطرد إبليس إلا باسم الله، وأعوذ بالله، وبالأذكار الشرعية، والآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، أما اسم البشر فلا يطرد به إبليس. وهؤلاء أصلاً

قاصرون، هؤلاء بشر بهجم عليهم الشيطان وبأتهمم الغضب والضعف ونحو ذلك، فالعجيب أنه بالغ لقلته الورع عند الرجل وقلة الإيمان والتقوى وعدم مراقبة الواحد الأحد، وهو غريب من هذا الأسطورة في بيانه وإداعه وحكمه وعبقريته وفصاحته ونبوغه، والهدف التنبيه على الأشياء التي وجدت فيه، كبشر كشاعر كإنسان يخطئ، فمنها هذا البيت.

ويقول في القصيدة نفسها في آخرها:

أَوْ كَانَ صَادِقَ رَأْسٍ عَازِرٍ سَيْفُهُ فِي يَوْمِ مَعْرَكَةٍ لِأَعْيَا عَيْسَى

يقول: إن من شجاعتك لو أنك أيها الشجاع، قتلت عزرائيل الذي هو ملك الموت بسيفك، وجاء عيسى عليه السلام الذي يحيي به سبحانه وتعالى الموتى بإذنه لما استطاع أن يرد رأس هذا ويحييه لقوة ضربة السيف.

أعوذ بالله، أعوذ بالله من المبالغة، ولا أدري كيف يرضى هذا الممدوح بهذا الكلام الذي لا يوافق عقلاً ولا نقلاً، بل يخالف شرائع الله سبحانه وتعالى، إنسان بشر بسيفه يقتل ملك الموت، ملك الموت الذي يدخل على الملوك ويدخل على الأقوياء، ويدخل على الجيوش، ويدخل على الدول، وهذا يا هو الهجاء، إذ كيف يصدق الممدوح هذا، ويسكت على العبارة. والله أعلم إن كان قالها أو دسّت في أشعاره.

ويقول في قصيدة أخرى يرثي:

وَكأنَّمَا عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ ذَكَرُهُ وَكَأنَّ عَازِرَ شَخْصُهُ الْمَقْبُورُ

أنبياء الله أجل وأعظم، وملائكته سبحانه وتعالى كذلك، فانظر إليه في المبالغة، يقول: إنك مثل عيسى ابن مريم، وذكرك مثل ذكر عيسى، أعوذ بالله، بل أنبياء الله أعظم وأرفع، الله شرفهم وعصمهم سبحانه وأيدهم بالنبوة، ونزههم من العيوب ومن الأخطاء وطهر قلوبهم وزكّ ضمائرهم سبحانه وتعالى ووقفهم

## المنبج في الميزان

وألهمهم وسددهم وأرشدهم، فتأتي إلى بشر مقبور مرتهن بعمله، ضعيف عن المدافعة عن نفسه، مقيد بحسناته وسيئاته وتصفه بهم؟ وعازر: يقصد عزرائيل، يقول: كأن ملك الموت مات في هذا القبر، وهذا كله جموح، حتى الجماليات لا توجد في القصيدة، خلاف قصائده التي كان فيها اعتدال وكان فيها نبوغ وكان فيها حكمة، التي سارت في الناس، ولذلك تجد هذه الأبيات في ديوانه مية ما سارت في الناس، وما جعل الله لها الانتشار مثل أبياته القوية التي يقول فيها:

مَنْ يَهُنُّ يَسْهَلِ الْهَوَانُ عَلَيْهِ	مَا لَجْرَحِ بِمَيِّتِ إِيَالُمُ
لَعَلَّ عَتَبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ	فَرِيئَمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعَلَلِ
عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ	وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ
وَمِنْ نَكِدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحَرِّ أَنْ يَرَى	عَدُوَّ آلِهِ مَا مِنْ صِدَاقَتِهِ بُدُ
أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيَا سَرَجُ سَابِحٍ	وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ
لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تَهْدِيهَا وَلَا مَالُ	فَلْيَسْعِدِ النَّطْقُ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ
وَإِذَا أَتَيْتَكَ مِنْ مَنِّي مَنْ نَاقِصٍ	فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنْتِي كَامِلُ
إِذَا سَاءَ فَعَلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظَنُونُهُ	وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوْهُمِ

ونحو هذا اللموع، لكنه أساء بهذه الأبيات التي ما نقلت ولا حفظت وليته ما قالها، ونعوذ بالله من هذا الخذلان الذي وقع فيه في هذه الأبيات، يقول:

مَلِكُ تَصَوُّرٍ كَيْفَ شَاءَ كَأَنَّمَا يَجْرِي بِفِصْلِ قَضَائِهِ الْمَقْدُورُ

يقول: إن هذا الملك قد تصور كما شاء، يعني: هو صور نفسه في بطن أمه، جنين يصور نفسه، إنسان لا يدري متى يموت ولا يدري عن رزقه ولا أجله أشقي هو أم سعيد؟

يقول: كأن المقادير تجري على قلم هذا الملك، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، والله على كل شيء قدير، بل الذي قدر الله وحده سبحانه، وسبق علمه المقادير والكتابة والتقدير، والقضاء، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مریم: ٩٣]، كل شيء في كتاب مسطر، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، هذا قضاؤه سبحانه وتعالى، لكن هذا من تجاوزه وجموحه.

ويقول في قصيدة أخرى:

فَمَا تَرَزُقُ الْأَقْدَارُ مَنْ أَنْتَ حَارِمٌ وَلَا تَحْرُمُ الْأَقْدَارُ مَنْ أَنْتَ رَازِقٌ

هذا الكذب، يقول: إنك إذا حرمت إنساناً ومنعته فإن الله لا يرزقه، يعني: كأن الرزق منك. إذا من رزق الخليقة منذ خلق السموات والأرض؟ وهذا البشر جاء من ضمن المليارات من البشر عمره خمسون أو ستون سنة مثل ذرات الرمل في العالم، وهم مليارات البشر، هذا الذي يرزق العالم. يقول: وإذا رزقت إنساناً فإنه لا يُحرم أبداً، وهذا هو الخطأ والتجاوز؛ فالذي يرزق الخليقة هو الله وحده سبحانه، وهو يقول سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وفي جامع العلوم والحكم: (يقول الله لموسى: يا موسى، يقول بنو إسرائيل: إني فقير) سبحانه، (وكل الخليقة منذ خلقت السموات والأرض أرزقهم ولم يفيض مما في يميني...) أو كما ورد في الحديث، فدل على أن الرزق من عند الله ﷻ، لا إنسان يمنعه ولا يقدمه ولا يمكن أن يملك الإنسان حرمان الناس، فإن كتب الله لك رزقاً لتأخذنه على أنوف العالمين أجمعين، وإن حرملك من رزق فلن تناله أبداً وإن اجتمع الناس أجمعون، وإنما أتيت بهذا لأنبيء على هذا الطغيان وهذا التجاوز غير المشروع.

ويقول: مادحاً قوماً:

وَلَوْ يَمَّمْتَهُمْ فِي الْحَشْرِ تَجِدُو لِأَعْطُوكَ الَّذِي صَلُّوا وَصَامُوا

## المتنبى في الميزان

يقول: من كرمهم فإنك لو أتيت يوم القيامة وتقول: أعطونا حسنات، قالوا: خذ أجر صلاتنا وصيامنا، وهذا كذب، فإن الإنسان يتنكر حتى لأمه التي أرضعته وربته وحملته واحتضنته بقول: نفسي نفسي، والأب يقول لابنه الذي هو أعز شيء عنده: نفسي نفسي، يطلبه حسنة.

فهذا هو الكذب وهذا هو العدوان؛ لأن المتنبى لا ينطلق من ثقافة شرعية، ولا علم بالكتاب والسنة، فتجاوز الحد، فأنبه على ذلك؛ حتى لا يؤخذ كل نتاج المتنبى، وتنشر في الخطب والمساجد، وإلا فإن العلماء أكثر شعر يستشهدون به شعر المتنبى حتى ابن تيمية، الغزالي صاحب الإحياء، ابن حزم الظاهري، الشوكاني، الصنعاني، ابن الوزير، علماء الإسلام الكبار والصغار كلهم يستشهدون بهذا، ابن القيم، ابن الجوزي، كل يأخذ وينهل من هذا العبقرى الشاعر العجيب، ولكن لا يقولن إنسان: أصبح كلام المتنبى مسلماً، بعد هذه السقطات الموحشة التي تجرح في المعتقد والتي لا يوافقها عقل.

ويقول في بيت آخر:

فَلَقَدْ دُهِشْتُ لِمَا فَعَلْتُهُ دُونَهُ      مَا يَدْهَشُ الْمَلِكِ الْحَفِيظُ الْكَاتِبُ

يقول: إنني لما رأيت كرمك أصابتنى الدهشة واعتراني الدهول، فلو كنت تفعل أقل من هذا الفعل في الكرم لدهش به الملك الحفيظ الكاتب الذي يكتب الحسنات والسيئات. سبحان الله! الملك موكل بالحسنات والسيئات لا يدهش، أعطاه الله القدرة فيحصى أعمال الناس، ويكتب الحسنات والسيئات ولا يصيبه خوف ولا وجل ولا حيرة ولا ذهول ولا اندهاش، إنما يندهش مثل المتنبى وأمثاله من البشر الضعاف المحاويج المهازيل، أما ملك يخلقه سبحانه للحسنات والسيئات، وملك يخلقه للقطر ليكيل القطر، وملك يخلقه للوحي مثل جبريل عليهم السلام أجمعين، فإن الله يعطيهم من القدرة ويعطيهم من الثبات، ومن القوة ما لا يعطيه لغيرهم.

يقول سبحانه في جبريل: ﴿ذُومِرَّةٌ فَاسْتَوَى﴾ [النجم: 6] شدة، فتوافق، توافق الأوصاف- حسب بعض التفاسير- الجسدية، فلا تباين في الأعضاء، ونقل في الصحيح أن جبريل رآه ﷺ بصورته التي خلقه الله عليها له ست مئة جناح، كل جناح سد ما بين المشرق إلى المغرب، فأغمي على رسولنا عليه الصلاة والسلام.

وهذا تجوُّز غير مقبول ومرفوض ومردود على شاعرنا، ونعوذ بالله من ذلك.

ويقول في بيت آخر:

نَفَذَ الْقَضَاءُ بِمَا أُرِدْتُ كَأَنَّهُ لَكَ كَلَّمَا أُرْمَعَتْ شَيْئاً أُرْمَعَا

يقول: القضاء نفذ بما أردت أنت، فأنت إذا نويت شيئاً جاءك القضاء مثلما نويت، وهذا كذب وبهتان وخذلان، الإنسان أحياناً يريد أن يكسب شيئاً فلا يكسب، فيقول للممدوح: القضاء طوع أمرك وأبشر.

من هو؟ أهو نبي مرسل يتكلم عن علم الغيب؟ فهذا خطأ وكذب وخذلان وتجاوز فننبه عليه.

ويمدح آخر، فيقول:

مَنْ يَزُرُّهُ يَزُرُّ سَلِيمَانَ فِي الْمَدِّ لِكَ جَلَالاً وَيُوسُفَافِ فِي الْجَمَالِ

يقول: زارك أيها الملك، في الملك فكأنك سليمان بن داود عليه السلام الذي ملك الدنيا والذي يقول: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَخِيهِ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، والذي أجرى الله له الريح، وسخر له الجن والإنس، والذي أعطاه سبحانه وتعالى من العطاء ومن الكنوز ما الله به عليم.

(ويوسفُافِ فِي الْجَمَالِ) يوسف الذي أعطاه الله شطر الحسن. فانظر إلى هذا

التناول وهذه المبالغة، يقول: أنت كأنك سليمان بن داود في قوتك وملكك، علماً

## المنبج في الميزان

بأن أحداً لا يعرف هذا الممدوح، ويقول: (يوسفُ في الجمال) وتجد أنك إذا رأيت هذا الممدوح لا تأكل التمر ثلاثة أيام، انظر فقط هكذا خذلان وتجاوز وطغيان.

وإنما المقصود ألا يقتد الناس بشعر هذا العبقرى؛ إذ إنه لا يخلو من سقطات وفلتات وجدت في ديوانه وإن كان قالها فقد علمها الله، كما يعلم من دسها في ديوانه إن كانت كذلك.



oboeikendi.com

## الحكم والبر

عقدت في كتاب المقامات مقامة للمتنبى  
تستطيع أن تقول: إنها مقابلة معه، هو يجب  
بالشعر ونحن نسأله بالثر وهذه المقامة بينت  
لنا شخصيته وأظهرت لنا طموحه، نسأله ثراً  
فيجبنا شعراً.

السؤال الأول: من أنت؟ هي البطاقة  
الشخصية، نسأله عن نفسه، وإنما ركزت على  
المتنبى؛ لأنه صار له وقع في الأدب العربي وصار  
هو قائد زمام الشعر والحكمة، وكثير من الشراح  
قدموه أو من النقاد من يجعله إمام هذا الفن؛ فن

الشعر وفن الحكمة، وسموه تسميات: كملك الشعراء، إمبراطور الشعراء، ووقع له من الحظ والشيوع، حتى إنه ما شرح ديوان مثلما شرح ديوانه، قلت: من أنت؟ قال -يجيبنا بشعره-:

أنا الذي نظرت الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

قلت: أما ترى السفهاء ينالون العظماء؟ قال:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأنني كامل

تستطيع أن تقول نثراً كثيراً بدلاً من هذا البيت، لكنه لن يحفظ ولا ينقل، ولا يستشهد به، تستطيع أن تقول في محاضرة: يا إخوة، إذا رأيت الناس السفهاء ورأيتم التافهين ينالون الكرماء والعظماء والأخيار والعلماء فهذه شهادة صدق لهؤلاء العلماء أنهم على حق وعلى خير؛ لأن الذين نالوهم هم أهل سوء، وأهل سفه وأهل طيش، ثم تبدأ في هذه المعاني، وهو يختصر لك هذا كله ببيت.

فلذلك إذا رأيت أهل الانحراف ينالون أحداً، فاعرف أنه من أهل الاستقامة، وإذا رأيت أهل الاستقامة يجمعون على انحراف شخص فاعرف أنه هو من أهل الانحراف... وهكذا.

قلت: أراك تعبت في طلب المجد! قال:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

ليس الكبر الحسي، إنما كبر المعنوي، يعني: النفس كبيرة، النفس لها طموح، لها همة، فلا يرضيها القليل مثلما يقول هو:

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

اجعلها حرب نجوم، الحياة غلاب، مثلما يقول أحمد شوقي:

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

فلن يهدي لك المجد أحد على طبق من ذهب، ولا يمكن لأحد أن يعطيك النجاح ويرسله لك رسالة هدية، النجاح عرق وجهد وسهر وتعب، سواء في العلم أو في الدنيا، أو في المال، أو في أي حرفة أو مهنة أو فن أو عمل، فهذا هو، يقول: وسبحان الله ترى منازل الناس في الجنة على حسب همهم في الدنيا، بعضهم لا يرضى بالقليل، أنا رأيت من بعض الناس لا يرضى بحفظ ثلثي القرآن أو نصف القرآن، بل لا بد من أن يحفظه كله، وإذا حفظه قرأ القراءات السبع، وتجده في الحديث لا يكتفي بالأربعين النووية، فنفسه كبيرة، حتى تجد عنده أحياناً من الضمور والهزال في الجسم، لكن له همة تمرر السحاب ﴿صُغَّ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] ولهذا يقولون: إن أبا إسحاق الشيرازي العالم الشافعي هذا الرباني كان نحيف الجسم، يقولون: إنما هو جلد على عظم، قالوا: لماذا هذا النحف والهزال؟ قال: واللّه ما من درس أدرسه طلابي إلا أكرره مئة مرة قبل أن أدرسه، وإنّي أعيد القياس الواحد ألف مرة، وكان يسهر الليالي، حتى حفظ علوماً كثيرة.

راه شاعر فإذا هو جلد على عظم، فقال:

تَرَاهِ مِنَ الذِّكَاةِ نَحِيلِ جِسْمِ      عَلَيْهِ مِنْ تَوْقُودِهِ دَلِيلُ  
إِذَا كَانَ الْفَتَى ضَخْمَ المعَالِي      فليس يضره الجسمُ النحيلُ

وهذا مثل قول المتنبّي يقول لسيف الدولة:

كفى بجسمي نحولاً أنني رجلٌ      لولا مخاطبتني إياك لم ترني

يقول: إنك تسمع صوتي وإلا فأنا نحيف، كان نحيفاً، فقط ثياب على عظام وعصب؛ لأنه مشبوب وعبقري، لكنه صرفه في غير الوجهة التي ينبغي أن تكون،

صرفها للدنيا وللظهور وللشعر، بخلاف همة مثل الشافعي وابن تيمية كيف صرفوها للأخرة ومرضاة الله، لكن سيقول لي سائل: فما دام أنك تؤمن بهذا وترى أنه صرفها في الدنيا، فلماذا أشغلتنا بهذه الآيات من شعره؟

قلت: لنأخذ الحكمة كما أخذها العلماء، ونأخذ منه المعاني، وتنفعنا في دعوتنا، وفي رسالتنا، وفي محاضراتنا، وفي دروسنا، كما استفاد من شعره العلماء الراسخون الربانيون في كتبهم وفي دروسهم، فالرجل - بلا شك - دقيق النظر وحكيم، ما تجد عالماً يأتي بمثل هذه المعاني ولو حفظ الكتب الستة؛ لأنها مواهب يقسمها الله ﷻ، يعطي هذا فقهاً، وهذا حديثاً، وهذا خطابة، وهذا أدباً، وهذا شعراً، وهذا حكمة، وهذا مالاً، وهذا جاهاً، وهذا شهرة، يوزعها سبحانه وتعالى: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مَوْلِيهَا فَأَسْتَبِقُوا الْحَيَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

فها يقول: إذا كانت نفس الإنسان كبيرة ولها طموح ولها همة فإن جسمه يتعب، يتعب عالي الهمة، تجده يريد الصلاة في الليل ويحضر صلاة الجماعة من أول الصف، ويحفظ القرآن، ويبرو والديه، ويزور أرحامه، ويدعو إلى الله، ويصلح بين الناس، ويضيف، وينفق، ويؤلف، ويدعو، ويذكر الله سبحانه وتعالى كثيراً، أما الخامل فلا شيء، عطل الحقوق، جثة هامة: ﴿أَمْ أَوْتَّ عَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١]، يخرج للمسجد وإذا الناس خارجون، تقول له: زرت الوالدة؟ قال: سأزورها، سمعت أن أخبارها طيبة، ولا يصلح بين أحد، ولا يهتم بأحد، ولا يضيف أحداً، ولا يحفظ شيئاً من قرآن ولا حديث، فهو يعيش هكذا، فهم أصفار.

قلنا له: أما ترى المجد يتعب؟

لو كان غيره يجيب عن السؤال لقال: نعم، المجد يتعب كثيراً، ويسهر الإنسان، ويجعل الإنسان دائماً متلهفاً، ودائماً سهران، ودائماً يواصل جهده وكفاحه، فهو يعرق وهو يبذل من الطاقة. وهو اختصر ذلك، فقال:

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجودُ يفتقرُ والإقدامُ قتالُ

يعني: لو أن الأمور تتحصل بلا مشقة لكان الناس كلهم أحياناً وأبراراً، لكن انظر في الكرم الآن تجد الكرماء قليلاً، لماذا؟ لأن إنفاق المال نذير بأنه يتلف المال، وأيضاً كانوا شجعاناً، لكن الشجعان قليل، لماذا؟ لأن الشجاعة توصلك إلى أن تفقد نفسك، الإقدام قتال، يعني: أنك تخاطر بنفسك، فيقل أهل المجد بسبب هذه المشقة.

قلت: رأيت السلف يتأثرون عند سماع القرآن ونحن لا نتأثر؟

لو كان غيره يجيب لقال: السلف على خير وعلى بر، وهم أحياناً وأبرار، ونحن ابتعدنا عن الصواب والسنة، وعن التقوى والورع، والخشية والمراقبة. لكنه قال:

لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك في أحشائه

يقول: إذا رأيت إنساناً مشتاقاً مولهاً، إنساناً يعيش معاناة، وتجد عليه آثار هذه المعاناة فلا تعذره، فقلبك ليس في قلبه وأحشاؤك ليست في أحشائه، هو يعيش معاناة أنت لا تدري بها، فأنت لم تعيش التجربة، فلا تلمه.

قلت: أرى المنافق أحياناً يبكي؟ فيبعض الناس يتصنع البكاء، حتى بعض السلف يقول: إن المنافق يرسل دموعه متى شاء، أما المؤمن فتغلبه دموعه. قال:

إذا اشتبكت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكى

يقول: سوف يظهر مع الأيام الدمع الصادق من الدمع الكاذب، وتجد من حالة الإنسان وهو يبكي أنه صادق أو كاذب، بعضهم يفتعل، لكن الدمع الصادق يغلب الإنسان، تجد ما افتعله الإنسان، له وقع، لكن دمع المجامل الكذاب ينكشف مباشرة، تجد على آثاره التمثيل، وتجد أنه يهول، وتجد أنه يريد أن يحسن من صورته ومن مظهره أمام الناس.

قلت: أرى واحداً من الناس يعدل أمة في الفضل؟

بإمكانه أن يقول: نعم لأن الله سبحانه وتعالى يعطي بعض المواهب لبعض الناس فيفوق كثير من الناس بما عندهم من العلم أو العقل أو القدرة أو الموهبة. لم يقل هذا، ولكن قال:

وإن تضيق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

هو يمدح سيف الدولة، يقول: أنت أصلاً من الأنام، وأنت من البشر مثلهم وهم مثلك، خلقت من آدم وحواء، وهم خلقوا من آدم وحواء، وأصلك من طين وهم من طين، لكنك تفوقت عليهم، فالمسك الذي يتهداه الملوك وهو من أعلى ما يكون في العالم من دم الغزال.

قلت: أرى لك حساداً كثيراً؟

فيقول يرد على حساده:

إني وإن تمّت حاسدي فما أنكر أني عقوبة لهم

يقول: صحيح أني ألوم حاسدي لكن الله أرسلني عقوبة لهم، الله عذبهم بي، يريد أن يشفي جراحه في هذه المسألة، ويقول في موطن آخر:

أبؤ فيسجد من بالسوء يذكرني فلا أعاتبه صفحاً وإهواناً

هو لم يسجد له أحد، لكنه يريد أن ينتصر، تحس حين تقرأ الديوان أنه مقهور، وأنه مظلوم، وأنه ما أخذ حقه من المجد، وأنه شخصية منسية، وأن الواجب على الناس أن يعيشوا قضيتهم، ويعترفوا به، ويكون الأول.

يقول: أصفح عنهم ولا أهينهم ولا أعاتبهم؛ لأنك إذا أتيت إلى الحاسد وتركته وأخملتة ولم تلتفت له قتلته موتاً؛ ولذلك إذا أتتك قصيدة هجاء فاتركها، وكلمة

سب فلا ترد عليها، ومقالة تتعرض لك فلا تحاول أن ترد عليها، وكلمة سفيه تبتدر منه فتعافل، فإنك تميته بهذه الطريقة، ويبقى عرضك مصوناً وتبقى مكانتك محفوظة، والناس يقدرّون لك صبرك.

قلت له: بعض الناس غلب عليه سوء الظن فتجده لا يرى إلا بنظارات سوداء. شاكاً في الناس، يرى الناس عنده عقدة مؤامرة ويرى الناس متأمّرين عليه، متربصين عليه، وهو دائماً مظلوم، حتى إذا ذهب إلى المحكمة قال: القاضي متربص بي وإلا ما قال كلمة الحق، لو قال كلمة الحق لكان عرف، وإذا قابلته قال: ما أمارني انتباهه، وإذا بايع إنساناً قال: غشاش، فالناس كلهم يغدرون إلا هو، والناس يظلمون إلا هو، فالمتنبّي يجيب:

إِذَا سَاءَ فَعَلَ الْمَرْءُ سَاعَتْ ظَنُونُهُ وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوْهَمِهِ

فهو لسوء عمله يتصور أن الناس سيئون، ويصدق الوهم الذي يحمله فيقع في الخطأ وهو واهم؛ لأنه ما اتبع الحقيقة وما وقف مع الحق.

نطرح على المتنبّي سؤالاً آخر في هذه المقابلة، فنقول: القوميون العرب يهددون إسرائيل من خمسين سنة؟

هو يجيب فيقول:

وَإِذَا مَا خَلَا الْجَبَانُ بِأَرْضِ طَلَبِ الطَّعْنِ وَحَسَدِهِ وَالسُّرْأَلِ

إنسان ليس عنده من يبارزه، فقط عبر الإذاعات حتى يقول البردوني في العرب:

وَقَاتَلَتْ دُونَنَا الْأَبْوَاقُ صَامِدَةً أَمَّا الرِّجَالُ فَمَاتُوا نَمًّا أَوْ هَرَبُوا

فقط الإذاعات والبيانات والتنديد والشجب، يقاتل الأشباح ويقاثل الهواء، لكن إذا جد الجد فلا شيء.

قلت: أعرف أغنياء ألسنتهم سخية وأيديهم بخيلة؟

قال يجيب:

جودُ الرجالِ مِنَ الأيديِ وَجودُهُمُ مِنَ اللسانِ فلا كانوا ولا الجودُ

بعض الناس جيد باللسان سخي، يقول: نتبرع وأبشروا بخير، والرقبة سداة، ولا يهتمكم يا إخوان، وإذا جاء الجد جاء بسبعين عذراً، لا يعطيك شيئاً ولا ترى شيئاً، فهذه مشروعات شفوية، حتى إن بعض البخلاء يلوم الكرماء، إذا تبرع إنسان قال: هذا رياء وسمعة، الإخلاص لك أنت، وإذا ألقى محاضرة قال: أشغلونا يا أخي، الدين معروف مفهوم، فهو دائماً يتصيد العيوب، وهؤلاء يسمون أعداء النجاح، فهذا يرد عليهم.

قلت: من يتأمل الشريعة يملكه حبها؟

قال هو:

وما كنتُ ممنُ يملكُ الحبُّ قلبه ولكنَّ منُ ينظرُ عيونك يعشِّق

فإنه يقول: أنا من عادتي لا أملك الحب، لكنه لما غلب الجمال والحسن، فقد أسر في حبها. فقط الإنسان يتأمل في مقاصد هذا التشريع العظيم، وهذه الحكم في الكتاب والسنة، وهذا الدين الخالد، وهذه الرسالة الربانية في كل ناحية من مناحي الحياة، والله إنه يحبها ويعشقها قلبه، ويسير وراءها في كل شأن: في المال، في الأسرة، في الولاية العامة، في العلاقات الاجتماعية، في القضاء، في الحياة الزوجية، في حياة الطفل، في الأخلاق، في الآداب، في السلوك، في كل أموره، حتى مع البهائم والحيوانات، تقول: سبحان الله! أشهد أنها شريعة من عند الله.

قلت: أسمع لأعداء الإسلام شبهات يثيرونها عنه؟ يثيرون شبهاً ضد الإسلام، لكن أبشركم الإسلام يجتاح العالم، الدين الأول هو الإسلام، أكثر كتاب يوزع الآن

في العالم وينشر هو القرآن الكريم، الإسلام هذا دين من عند الله يقبله أهل العقول، ولهذا يقول أحد العلماء: أبشروا أيها المسلمون، وأملوا، فأفق الإسلام أوسع من أوطانكم، وغد الإسلام أطول من أراضيكم، الإسلام أكبر من هممكم، الإسلام سوف يبقى أمام الزحف، ولذلك يقول هو يجيب هنا:

وَلِلَّهِ سِرٌّ فِي عَمَلِكَ وَإِنَّمَا كَلَامُ الْوَرَى ضَرْبٌ مِنَ الْهَدْيَانِ

يقول: هو كذب كلام الورى في هذا الدين الخالد.

قلت: فما رأيك في الدنيا؟

الآن فلسفته في الدنيا، ما هو قوله؟ قال:

لَحَى اللَّهُ ذِي الدُّنْيَا مَنَاخًا لِرَاكِبٍ فَكُلُّ بَعِيدٍ الِهِمُّ فِيهَا مَعْدَبٌ

يقول: لا بارك الله فيها، كل إنسان له همة عالية يعذب فيها تعذيباً؛ لأنها دنيا

غدارة غرارة، لا يسكن فيها إلا الجبناء، حتى يقول هو في مشهد آخر:

تَصَفُّوْا الْحَيَاةَ لِجَاهِلٍ أَوْ غَافِلٍ عَمَّا مَضَى مِنْهَا وَمَا يَتَوَقَّعُ  
وَلَمَنْ يَغَالِطُ فِي الْحَقَائِقِ نَفْسَهُ وَيَسُوْمُهَا طَلَبَ الْمَحَالِّ فَتَقْتَعُ

يقول: والله لا تصفو الحياة إلا لجاهل أو غافل، جاهل بأثارها، أو غافل عن

مصائبها، وغافل عما مضى منها، فلا يفكر في شيء؛ وإلا لوعرف الإنسان حقيقة

الحياة لارتدع؛ لأن صاحب العقل تجده متوجساً دائماً خائفاً يفكر في الحساب

ولقاء الله ﷻ لا يريد أن يخطئ، إذا أخطأ ندم، إذا أذنب تأسف، إذا عثر تاب،

أما هذا المجرم، فالذنوب عنده مثل الطاعات، ويضحك حتى يقول:

ذُو الْعَقْلِ يَشْقَى فِي النِّعَمِ بِعَقْلِهِ وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ

تجد العاقل وهو في النعيم يريد عملاً؛ فإذا فاتته تكبيرة الإحرام أقام الدنيا

وندم، ما صلى الفجر في جماعة، قال: الله المستعان، حسبنا الله ونعم الوكيل،

بعض السلف كان يمرض شهراً إذا فاتته تكبيرة الإحرام في الجماعة، بعضهم تفوته صلاة الفجر فيبقى مريضاً، الآن يقول أحدهم يضحك ويمزح: يا إخوان، ما انتهت اليوم إلا وصلت الساعة العاشرة، سبحان الله! يا إخوان النوم، في الشتاء بركة؛ لأن النوم في البرد طيب، ولا درى أنه ارتكب إثماً هذه المصيبة، تقول له: كم قرأت؟ قال: والله يا أخي، سبحان الله من زمن ما قرأت المصحف أقرأ يوم الجمعة، يا أخي، الحمد لله الدين هذا طيب يقول: ﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠] ولو آية يا أخي، لكن أموره في الدنيا كما يقول ابن القيم: بعضهم يستخدم أنواع الإنكار الثلاثة في الدنيا: القلب واللسان واليد، فهؤلاء أموات أصفار، يقول:

عَدُوُّ الْحَصَى وَالرَّمْلِ فِي تَعْدَادِهِمْ      فَإِذَا حَسِبْتَ وَجَدْتَهُمْ أَضْفَارًا  
مِنْ كُلِّ مَفْتُونٍ عَلَى قِيَارَةٍ      كَدَأُ وَجَدْتَهُ بِنَفْسِهِ بِيْطَارًا

قلت: ألا تحتاج الدنيا إلى مجاملة؟

قال: نعم.

وَمَنْ نَكِدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحَرِّ أَنْ يَرَى      عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صِدَاقَتِهِ بُدُ

يقول: من شؤم هذه الحياة نعوذ بالله منها، ومن نكدها: أنك تبتلى بإنسان عدو لكن تجامله حتى تسير أمورك، فلا صفاء إلا في جنات النعيم، اطلبوا داراً غير هذه الدار، اطلبوا دار الوفاء، دار الصفاء، دار الخلود، لا مرض فيها، لا نصب، لا وصب، لا هم، لا غم، لا حزن، هذه:

دَارٌ مَتَى مَا أَضْحَكْتَ فِي يَوْمِهَا      أَبْكَيْتَ غَدًا قَبْحًا لَهَا مِنْ دَارٍ

قلت: كان للعلماء قدر عند الناس واليوم جهل قدرهم؟

قال:

أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم وأتيناها على هرم

يقول: زماننا هذا مدبر، العلم فيه والمعرفة والكرم والجود قليل، هذا في القرن الرابع، فكيف لو أدرك زماننا، حتى يقول لييد كما في الصحيح:

ذهب الدين يعيش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر

قالت عائشة: «كيف لو أدرك زماننا لييد» قال عروة: كيف لو أدركت زماننا عائشة؟! قال الزهري: كيف لو أدرك زماننا عروة؟! فأخذ الرواة يمشون به إلى أن وصلوا إلى أبي نعيم الفضل بن دكين وغيره من العلماء، أقول: كيف لو أدركوا زماننا نحن، فيقول: كان قبلنا أجواد كثير والأخيار، أما نحن فأتينا الزمان، فسرهم وأتيناها على هرم.

قلت: أرى العظماء لا يبالون بالمصاعب؟

قال:

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ما يمر به الوحو

يقول: إذا كان الإنسان معتاداً على المصائب والأزمات والمنايا والموت، فأهون شيء الوحل هذا الطين الذي يمشي فيه، فتجد بعض الناس همته عالية قوية، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]، ابن تيمية أتته حمى هزته، فدخلوا، قالوا: يا أبا العباس، ماذا أصابك؟ قال:

تموت النفوس بأوصابها ولم يندر عوادها ما بها

وما أنصفت مهجة تشتكي أذاهما إلى غير أحببها

الشكوى لله سبحانه وتعالى.

فلذلك يقول هنا: (إذا اعتاد الفتى) إن كان الفتى معتاداً على المنايا وعلى الصعوبات فبقية الأمور عنده سهلة، حدثوني عن رجل من الأعيان، له أولاد كثير،

ومشهور عنه الصلابة، فجاءته مصائب مات له أبناء في حوادث سيارات، يقول بعض المشايخ: والله إنا جالسون في مجلس معه والقهوة تدار وهو يذكرنا بالله **ﷺ** يقول: كأنه جيل، قال: ودخل ابنه الذي أتى من المستشفى، قائلاً: أخي قتل في حادث سيارة ومات، قال: الله المستعان، إنا لله وإنا إليه راجعون، قال: وإذا به صابر، قال: أين أنتم؟ قال: في المستشفى، قال: أنها الإجراءات وأعلموني، قال: وما التفت لهم، قال: يا إخوان، سبحان الله قضاء وقدر.

فهذا متعود عنده صبر وعنده احتمال وعنده قوة، لكثرة المراس.

قلت: بعض الناس يستفيد من نكبات الآخرين؟

يقول هو يرد:

كَذَا قُضِيَ الْأَيَّامُ مَا بَيْنَ أَهْلِهَا مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ

فالعاقلة الحصيف يستفيد من المصائب التي تقع عند الآخرين، إن مصائب الآخرين التي تكرهها تثمر لك حكماً وتجارب أنت ما قمت بها، والسعيد من اعطى غيره، ولهذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَّكُنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْأَيْدِيَّ﴾ [الأحقاف: ٢٧] يقول: انتبهوا أما ترون القرى كيف وقع فيها ما وقع من بين يديها وما خلفها وجعلناها موعظة.

فأحياناً تقع مصيبة عند قوم، لكن الجيران منهم وبعض الناس يستفيد من هذه المصيبة في أن يجعلها فائدة يستثمرها وتجربة وعبرة ﴿فَاعْتَبِرُوا يَكُونُوا لِالْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] ولذلك ذكر الله سبحانه وتعالى أن أهل الأبصار يعتبرون بمصائب الآخرين.

قلت: ما رأيك في الزمان؟

قال:

رَبُّمَا تَحْسُنُ الصَّنِيعَ لِيَأْتِيَهُ وَلَكِنْ تَكْتَبِرُ الْإِحْسَانَا

يقول: الأيام تأتي لها حلوة أحياناً، أحياناً يأتيك منصب، أحياناً يأتيك مال، تبشر بولد، تبشر بثروة، ولكن بعد مدة وإذا بك يأتيك حادث سيارة في الولد، ومرض في الجسم، والثروة ذهبت والرصيد ذهب في الأسهم لم يبق شيء، بشرت بولاية مثلاً ومنصب وإذا برقيات التهنئة، قليلاً وإذا العزل، قال: الله المستعان، يقول:

تَوَلَّاهَا وَلَيْسَ لَهُ عَمْرٌ وَفَارَقَهَا وَلَيْسَ لَهُ صَدِيقٌ

يقولون على ذكر الولاية: تولى القضاء قاضٍ من الظلمة الكبار فضايق الناس في دمشق في القرن الخامس، فأتى أحد الشعراء فقال:

وَلَمَّا أَنْ تَوَلَّيْتَ الْقَضَايَا وَفَاضَ الظُّلْمُ مِنْ كَفَيْكَ فَيضًا

ذَبَحْتَ بغيرِ سَكِينٍ وَإِنَّا لَنرْجُو الذَّبْحَ بِالسَّكِينِ أَيْضًا

لأنه يقال: من تولى القضاء، فقد ذبح بغير سكين.



oboeikendi.com

## الكلمة الأجرية

يقول أبو الطيب المتنبي:

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً

وحسب المنيا أن يكن أمانيا

تمنيها لما تمنيت أن ترى

صديقاً فأعيا أو عدواً مداجياً

يقول: إذا وصلت إلى مرحلة أن تتمنى الموت،

فقد بلغ بك الداء مبلغاً عظيماً والوجع والضنى

والمرض والألم إلى أن طلبت أن يكون علاجك

من ذلك هو الموت، فإذا أصبح الإنسان في مرحلة

يطلب الموت فهو في أشد البلاء، وحسب الموت

فضاعة ورزية أن يكون أمنية يتمناها الإنسان.

ثم قال: لقد وصلت إلى حالة من الإحباط إلى درجة أنك لم تجد حتى صديق، فضاقت عليك الأرض بما رحبت وأصبحت الحياة ضيقة عليك، وأغلقت عليك الأفق وانغلقت عليك الآمال، حتى ما تلقى صديقاً ولا عدواً مداجياً، حتى العدو الذي يستخدم معك المجاملة ما تلقاه، فما ثمة إعداء ظاهر مكشوف، حينها إذا انقطع الإنسان وأصبح بلا صديق ولا رفيق ولا مؤانس فإن الحياة تضيق عليه، لكنه نسي ملمحاً آخر أنه إذا ضاقت عليك الدنيا وقطعك الأصدقاء والخلان والأحباب والأصحاب بقي معك الواحد الأحد لا إله إلا هو ولا رب سواه.

فَالزُّمُ يَدِيكَ بِحَبْلِ اللَّهِ مَعْتَصِماً      فَإِنَّهُ الرُّكْنُ إِنْ خَانَتْكَ أَرْكَانُ  
فحسب الإنسان ربه سبحانه وتعالى وهو كافيه إذا توكل عليه وصدق في الإيمان به جل في علاه.

يقول في هذه القصيدة: إن بعض الناس يطلب الموت، فهذا أبو العلاء المعري تلميذه من المعجبين به، يقول:

فِيَا مَوْتُ زُرْ إِنْ الْحَيَاةَ ذَمِيمَةٌ      وَيَا نَفْسُ جِدِّي إِنْ أَمْرِكِ هَازِلُ  
يقول بعدها:

إِذَا عَيَّرَ الطَّائِيَّ بِالْبَخْلِ مَادِرٌ      وَعَيَّرَ قَساً بِالْفَهَاهَةِ بِأَقْلُ

الطائي يقصد حاتم الطائي، يقول: إذا وصل الحال عند الناس أن يعيب مَادِرٌ أبخل العرب حاتمًا الطائي الذي هو أكرم العرب، إذا وصل الحد إلى ذلك وصار السفهاء يتناولون على العظماء وأن التافهين ينالون من الأخيار الصالحين المصلحين فعلى الدنيا السلام.

وبأقل من أميا الناس لا يستطيع الكلام، يصاب بالحصر وبالإعياء والانتقطاع إذا تكلم، وقس بن ساعدة خطيب العرب في الجاهلية، الذي إذا تكلم بذُّ الخطباء

## الظلمة الآخرة

وغلبيهم وأفحم كل الأدياء، فيقول: إذا وصل الحال إلى أن باقلاً هذا يعيب قساً  
بالفصاحة ويقول: أنت لست بفصيح يا قس، فعلى الدنيا السلام.

وقال الدجى للشمس فأنت كسيفةٌ وقال الدجى للبير: وجهك حائلٌ

يقول: إن الليل إذا قال للشمس: أنت كسيفة وهو ليل أسود بهيم والشمس ساطعة  
لامعة. والدجى وهو ظلمة الليل قال للبير: ليس فيك نور؛ فعلى الدنيا السلام.

إذا وصل الحال إلى هذا، فما عاد للإنسان قيمة وأصبح هناك أناس لا يقدرون  
صاحب الموهبة ولا يقدرون من له مكانة ولا من له مناقب عالية، لا يقدرون الشيخ  
الكبير، ولا المسؤول المقسط العادل ولا العالم الرباني ولا حامل القرآن ولا الخير  
ولا العابد ولا الجواد.

وعلى ذكر تمني الموت، فإن أهل النار - والعياذ بالله - إذا دخلوا النار واشتد  
عليهم حرها تمنوا الموت: ﴿وَأَدْوَأُ بِمَكَرِكُ لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] من شدة  
حر النار والعياذ بالله، من شدة العذاب والنكال وما وجدوه هناك من حريق  
وسعير وزمهير، قالوا لمالك الذي هو خازن النار: ﴿بِمَكَرِكُ لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾  
[الزخرف: ٧٧] يقولون: نسألك يا مالك، أن تسأل الله أن يقضي علينا فيميتنا؛ لأن  
الإنسان فيها لا يموت فيرتاح ولا يحيا حياة كريمة طيبة، ولا يخرج منها، وهذا  
عذابه سبحانه وتعالى الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد، فالواجب  
على الإنسان أن يخاف ويخشى هذا ويأخذ كل العدة؛ لينجو من النار، وذلك  
بطاعة الله وذكره، وبالتوبة النصوح، بالاستغفار، بفعل الحسنات، بترك الخطايا  
والذنوب، بالاستعداد للقاء الواحد الأحد.

ولذلك يقول مرة أحد الأخيار، بعدما انقطعت به الحال وكثرت عليه الديون  
وخانه أصدقاؤه وأصحابه، فمر بمقبرة:

ألا موتٌ يباعُ فأشتريه فعيشٌ حياتنا لا خيرَ فيه

فكأنه يطلب الموت فيشتره منه.

ألا رحم المهيمن نفس حرّاً تصدق بالوفاء على أخيه

يقول: جرى الله خيراً من تصدق علينا بالموت، حتى نخلص من هذه الحياة.

يقول المتنبّي: (كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً).

إذا وصلت إلى هذه الحالة فقد وصلت إلى حالة ما بعدها حالة من المرض، ومن الإعياء ومن المصائب ومن النكبات، حتى يصل بعض الناس إلى درجة الانهيار والانتحار، تغلق أمامه الأبواب، أكثر ما يكون هذا عند من يشك في قدرة الله ومن يقل الإيمان عنده، ومن لا يرجو ثواب الله ﷻ، ومن ليس عنده عمل صالح، فيصل إلى درجة الله أعلم بها، ولكن المؤمن بالله لا ينتحر؛ لأنه يعرف أن الله يغفر الذنوب وأن مع العسر يسراً وسيجعل الله بعد عسر يسراً، وأن هناك فرجاً وأن هناك غداً مشرقاً، وأن هناك أملاً، وأن هناك فتحاً قريباً بإذن الواحد الأحد، لكن هذا الذي يبأس من رحمة الله ويقنط من روح الله ويصيبه التشاؤم، وذلك بسبب بعده عن التدين وعن الإيمان، تجده يقدم على الانتحار، وأحياناً يوجد مثل هذا الفعل من بعض الصالحين، فقد يتمنى الموت، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تمنى، وإلا فإن في الصحيحين يقول النبي ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، إن كان خيراً فلعلمه أن يزداد، وإن كان على سوء فلعلمه يستعجب - يعني: يتوب - ولا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً» فنهى النبي ﷺ عن تمني الموت عند الرخاء، فالأصل في الإنسان كلما ازداد عمره كان خيراً له؛ لأنه يصلي الصلوات الخمس ويذكر الله ويقرأ القرآن ويفعل الخير. فتضاف له حسنات، وإذا كان الإنسان مقصراً فلعل الله أن يمنّ عليه بتوبة وباستغفار فيعود إلى الله، لكنه يجوز للإنسان عند العلماء في الفتن، لكنه لا يطلقها، وإنما يقول: اللهم، أحييني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي.

## العلماء الأربعة

أما عمر بن الخطاب فقد صح أنه تمنى ﷺ لما خاف أن يضعف في العدل بين الرعية، وربما يقع في فتنة أو مشكلة لا يستطيع القيام بها، قال ﷺ: اللهم، إنه رق عظمي وشاب رأسي فاقبضني إليك غير مفرط ولا مفتون، اللهم، إني أسألك ميتة في بلد رسولك وشهادة في سبيلك، فيقول له أصحابه: يا أمير المؤمنين، تطلب الشهادة وتشرط أن تكون في بلد رسول الله ﷺ - لأن المعلوم أن من يطلب الشهادة يطلبها في الثغور في ساح الوعى في ملاقات الأعداء - قال: هكذا سألته وأسأل الله أن يبلي لي ما سألت.

فرزقه الله الشهادة في صلاة الفجر في المحراب، وهو إمام المسلمين، وهو ظاهر في كل وقت ﷺ، في عدله وهو يصلي بالناس، وفي الركعة الأولى وقيل الثانية، وفي بلد رسول الله ﷺ، طعنه أبو لؤلؤة المجوسي مولى المغيرة.

مولى المغيرة لا جادتك غادية من رحمة الله ما جادت غواديها  
قل للملوك: تنحوا عن مناصبكم فقد أتى أخذ الدنيا ومعطيها  
فالشاهد أنه ﷺ سأل ذلك.

والتعلق بالحياة جانب آخر. فمن لا يريد ملاقات الله فهو عاصٍ ومسرف على نفسه وخادم للدنيا وهذا دليل على الإفلاس والإحباط، حتى قال الله ﷻ عن اليهود: ﴿وَلَنَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [البقرة: ٩٦] يعني أنهم أكثر حرصاً على الحياة حتى من وثنيي العرب مشركي العرب، ﴿يُودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] يقول: يتمنى أحدهم أن يبقى في الحياة ألف سنة، ثم يقول سبحانه: ﴿وَمَا هُوَ بِمُرْحِرِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦] افرض أنه عمر ألف سنة، المعذب سوف يعذب، إذا مات فسوف يعذبه ربه، هل يمنع أن يعيش ألفاً أو ألفي سنة، أليس المصير إلى الله؟ أليس الملجأ إليه؟ أليست النهاية الموت؟

فذلك يقول: ﴿يُودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَّزَحٍ مِنْهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦].

أما على ذكر الموت فإن للناس توقيعات في الموت للأبرار وللفجار، للمؤمنين وللكفار، كلمات صادقة في سكرات الموت؛ لأن سكرات الموت يصدق الإنسان فيها، فينتهي فيها الطلاء، ينتهي البهرج، ينتهي الزخرف، ينتهي الدجل والخرافة والكذب، يبدأ الإنسان يصدق، سكرة الموت أو ساعة الموت هي ساعة الصفر التي يجبن فيها الشجاع ويضعف فيها القوي ويفتقر فيها الغني، إلى درجة أن فرعون قال وهو ذاك الطاغية لما رأى الموت وهو في البحر: ﴿ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] ولم ينفعه ذلك؛ لأنه قال ذلك في الوقت الضائع.

فهنا سيد الصالحين وسيد الأخيار محمد ﷺ يقول في سكرات الموت: «بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى» وقال: «اللهم أعني على سكرات الموت» وقال: «لا إله إلا الله إن للموت لسكرات» هذا كلام أصدق الناس أجمعين ﷺ.

ونقل عن الصالحين مثل الشافعي الإمام المعتمد رحمته الله وأرضاه لما حضرته سكرات الموت يقول:

ولمأ قسا قلبي وضافت مذاهبي      جعلت الرجاء ربي، لعفوك سلماً  
تعاطمني ذنبي فلما قرنته      بعفوك ربي، كان عفوك أعظماً

وهذا من أجمل الأبيات التي فيها من الرجاء ومن حسن الظن بالله؛ لأنه صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»، فمن حسن الظن بالله في سكرات الموت أن تظن بالله خيراً، وأنه يقفر الذنوب، وأنه يتجاوز عن السيئات، وأنت تقدم على رب كريم، فمن هذا المعنى أخذ الشافعي وهو الإمام البحر العلامة عفر الله له وأكرم نزله.

وذكروا عن أبي نواس المقصر المسرف الذي بان ذلك من شعره، نسأل الله  
أن يتجاوز عن جميع المسلمين، يقول:

إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ      فبِمَنْ يَلِدُ وَيَسْتَجِيرُ الْمَجْرِمُ  
مَا لِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَا      وَجَمِيلَ عَفْوِكَ تَمَّ إِنِّي مُسَلِّمٌ

وهذا من الكلمات الجميلة، والافتقد ذكر عنه أنه قال كما قال الحافظ ابن  
كثير في التفسير أنه ذكر في بعض الروى أن الله غفر له، قالوا: بماذا قال:  
بوصفي الوردة النرجسة، قلت فيها:

تَأْمَلُ فِي نَبَاتِ الْأَرْضِ وَانظُرْ      إِلْسَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِكُ  
عَيُونَ مَنْ لَجِينَ شَاخِصَاتٌ      بِأَحْدَاقِ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ  
عَلَى كَثْبِ الزَّبْرِجِدِ شَاهِدَاتٌ      بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

وهذا من أجمل الأبيات في الوجدانية، فإن كل زهرة ووردة وورقة وورقة وقطرة  
ماء ونسمة هواء وقطعة ظلماء تدل على رب الأرض والسماء. وصدق القائل:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ      تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ  
فِيَا عَجَبًا كَيْفَ يَعْصَى الْإِلَهُ      أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُ

ففي سكرات الموت كلام ينقل للأدباء والعلماء والحكماء والشعراء.

ومالك بن الربيع الذي يرثي نفسه في قصيدة مؤثرة قالها بعدما لدغ بحية  
وهو في سكرات الموت، كان مالك بن الربيع هذا من اللصوص الذين يقطعون  
طريق القوافل، فهدهاه الله سبحانه وتعالى، رأى جيش عمرو بن عثمان بن عفان،  
وقيل: أبان بن عثمان بن عفان ذاهباً للغزو، وقال بعضهم: بل سعيد بن عثمان  
ابن عفان ذهب يقاتل في الشمال مجاهداً، فتاب على يديه، وترك اللصوصية

والسرقات، ولما سار في الطريق وجاء الليل لدغته حية، فغشيه السم وتغير لونه وأشرف على الوفاة، وحضروا قبره، وأرسل رسالة للناس في قصيدة صادقة لا تجد في الشعر العربي أصدق منها تأثيراً ووقفاً، حتى يقول:

فلله دري يوم أترك طائعاً بني بأعدى الرقمتين ومالياً

أبناؤه وأمه وأبوه كانوا بأعلى الرقمتين، فاستبكى الحضور، واستدر الدمع من الناس، حتى رثى الفرس ورثى سيفه ورثى حياته:

وأشقر خنديد يجر لجأه إلى الماء لم يترك له الموت ساقياً

يقولون: لا تبعد وهم يدفنونني وأين مكان البعد إلا مكانياً

فإن من عادة العرب أن يقولوا: لا تبعد.

ولا يوجد أبعد من مكاني، هذا هو البعد كله، فهذا الذي قاله في سكرات الموت، وهي كلمات صادقة مؤثرة.

وقد نقلوا في حديث صحيح: أن أبا بكر رضي الله عنه لما حضرته الوفاة أتت عائشة ابنته الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها وعن أبيها قالت: «صدق الشاعر يا أبتاه» وكانت فصيحة وأدبية، وكانت تحفظ الشعر، وعندها من الأدب الرصيد الكثير، وهذا البيت لحاتم الطائي، قالت:

لعمرك ما يعني الثراء عن الفتى إذا حشرت يوماً وضاق بها الصدر

يقول: والله ما ينفع المال إذا خرجت الروح أو كادت. فحاتم يقول في قصيدته لزوجته ماوية:

أماوي إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر

يعني: السمعة، يريد السمعة والثناء الحسن والمدح والذكر الجميل. أي: والله لا ينفع المال ولا القناطير المقنطرة ولا الأرصدة البنكية إذا ضاق الصدر بها.

## الكتابة الإعرابية

وعلى ذكر الحشرجة فقد بنى هارون الرشيد قصرًا مشيدًا في بغداد جميلًا، وقال للشعراء أن يدخلوا؛ ليمدحوا القصر ويمدحوه، فدخلوا وأثنوا ومدحوا وباركوا وهنؤوا، ولما خرجوا دخل أبو العتاهية فوقف أمام هارون الرشيد، فقال:

عِشُّنْ مَا بَدَأَ لَكَ سَالِمًا      فِي ظِلِّ شَاهِقَةِ الْقُصُورِ

قال هارون: هيه! أي: إنه طرب وانتعش واهتز بهذا المطلع الفخم والتبريك والتهنئة.

قال:

تَجْرِي عَلَيكَ بِمَا أُرِدُّ      تَ مَعَ الْغُيُوبِ مَعَ الْبُكُورِ

فاهتز وانتعش.

قال:

فَإِذَا الْبُغُيُوسُ تَغْرُغَرَتْ      بِزَفِيرِ حَشْرَجَةِ الصُّدُورِ

فَهِنَاكَ تَعْلَمُ مَوْقِنًا      مَا كُنْتَ إِلَّا فِي غُرُورِ

فدمعت عيناه.

والآن أين أبو العتاهية؟ أين هارون الرشيد؟ أين القصر الذي بناه؟ أين الوزراء الذين حضروا؟ أين العلماء الذين احتفلوا؟ أين الشعراء والأمرء؟ أين الأغنياء الذين حضروا ذلك المكان؟ ﴿هَلْ تُحْسِنُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا﴾ [مريم: ٩٨].

وإنما أقول هذا على ذكر الكلمات التي تحضر الناس عند الموت.

ونعود إلى المتنبّي الذي يقول:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسبُ المنايا أن يكن أمانياً

في أبيات جميلة، وهذه بعض منها، يقول مادحاً نفسه:

خلقت أوفاً لو رجعت إلى الصبا تفرقت شيبى موجه القلب باكياً

أنا في وفاء دائم- والله أعلم به- ومن وفائي أنني لو شبت وطلب مني أن أرجع إلى الصبا؛ لأن الصبا محبب عند الناس، لكنت تفرقت الشيب وأنا أبكي عليه؛ لأنني إذا صاحبت أحداً وفيت له ولا أعدر.

ومن ضمن القصيدة هذه ذكر الوصل إلى كافر، يقول:

قطعت الفياضي والشناخيب دونه وجبت هجيراً يترك الماء صادياً

الفياضي والشناخيب: يعني الجبال. والهجير: يعني: القيط والصيف وشدة الحر.

أبا كل طيب، لا أبا المسك وحده وكُل غمام لا أخص الغواديا

يقصد نوعاً من الطيب، والمسك نوع من الكافور.

ثم يقول في القصيدة:

وللنفس أخلاق تدل على الفتى أكان سخاء ما أتى أم تساخياً

يقول: يُعرف الإنسان من حركاته أهو سخي جواد أم يجامل ويتساخى ولا يستمر؛ لأن بعض الناس يظهر الكرم، فتجده يرحب لكنه لا يستمر، ينقلب ويرجع إلى حاله.

وتجده يتكلف ويحاول لكنه لا يقدر، تجده إذا أتاه ضيف يهمل ويكبر ويخرج من البيت يكبر ويدخل يهمل. ويدبح ذبيحة ويستعين بالله ﷻ، ويتعوذ من الشيطان قائلاً: أعوذ بالله منك يا شيطان، الله يخزي هذا الشيطان، نسأل الله أن يلهمنا رشدنا، ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ويستخير الله، هل الأحسن أن يدبح شاة

## الذممة الاخيرة

أم الأحسن ألا يذبح، ثم يأتي يسن الشفرة، ثم يدخل على الضيف يقول: إن الدنيا فانية- لأنه قد ذبح هذه الشاة- ويقوم بإلقاء مواعظ، فإذا ذبحها دمعت عيناه من خشية الله وخاف. فيقول المنتبى: تظهر هذه العلامات على الإنسان البخيل، ليس مثل إبراهيم عليه السلام: ﴿فَرَأَىٰ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦] سبحانه الله! ما هذا الكرم!؟ ذهب إلى هذا الثور الكبير وقدمه لهم بمجرد أن دخلوا عليه وألقوا عليه السلام.

ويقول في سورة هود: (حنيد)، وإبراهيم له روغتان: ﴿فَرَأَىٰ عَلَيْهِمْ صُرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصفافات: ٩٣] على الأصنام التي عبدها الجهلة والكفرة، حطمها، والروعة الثانية روغة الكرم، فكان كريماً شديداً الكرم، يقدم أحسن ما عنده وفوق هذا يقول: سامحونا على التقصير.. أما البخيل فيخرج العشرة الريالات ثم يطلق ثلاثاً ألا يحاسب إلا هو..! وإن جاء الشاي بريال ونصف فيقسم بالطلاق ألا يتولى الحساب إلا هو، ثم يلقي محاضرة بعدما يحاسب.. يقوم قائلاً: يا أخي، ماذا نريد بالمال؟ هذا واجب علينا، وعسى الله يعوضنا خيرًا، والدنيا ذاهبة، ما عند الإنسان إلا أخلاقه وكرمه.

أما السخي فتجده في جبلته يحب الكرم، يحب الجود، تجده رحيباً.. وأهلاً وسهلاً.. كأنك تعطيه، كما يقول أحدهم:

تَرَاه إِذَا مَا جِئْتَهُ مَتَهْدًا      كَأَنَّكَ تَعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

وفي بيت من قصيدة أخرى يقول:

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ      لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللَّهَ سَائِلُهُ

فيعض الناس سبحانه الذي أعطاه سهل في أخلاقه، في خدماته، في كرمه، يقول: ما عملنا شيئاً، سامحونا على التقصير، يغدي.. ويعشي.. ويعطي.. ويهدي.. ويقول فوق ذلك: سامحونا على التقصير، أما البخيل فسبحان الله!

﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] فهو وإن أخفى ما في نفسه فلا يستطيع أن يخفيه كثيراً.

والصالحون كان لهم كلمات في سكرات الموت، فمعاذ بن جبل قائد علماء الجنة رضي الله عنه وأرضاه العلامة البحر، قائد العلماء وقبلهم برمية حجر، والذي قال له رضي الله عنه كما في السنن: «إني أحبك يا معاذ، لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم، أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» فمعاذ رضي الله عنه يقول في سكرات الموت: «اللهم، إنك تعلم إنني لم أحب الحياة لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار ولا لعمارة الدور ولا لرفع القصور، وإنما أحببت الحياة لأمرغ وجهي ساجداً لك في السحر وأجالس أقواماً ينتقون أطيب الكلام كما ينتقى أطيب التمر، وأصوم لك يوماً شديد الحر» هذه الربانية، هذا الاهتداء، يقول سبحانه: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٧٩] أي: لا تكونوا كالبطالين العاطلين ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩] فجزاه الله خيراً وجزى إخوانه من الصحابة من المهاجرين والأنصار خير الجزاء وجمعنا بهم في جنات النعيم.

ومنهم المأمون الخليفة العباسي، فإنه قال كلمات في سكرات الموت قوية مؤثرة لما حضرته الوفاة، قال: أخرجوني إلى العسكر وإلى الجيش، فأخرجوه، قال: يا من، لا يزول ملكه ارحم من زال ملكه.

لا الجيش ينفعه ولا الأطباء ولا الأمراء ولا الأثرياء ولا الثروة ولا العسكر ولا السيوف.. كل شيء ذهب، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الفصل: ٨٨] وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] فالبقاء لله سبحانه وتعالى، إنما هذه بعض الكلمات التي قالوها.

وفرعون في سكرات الموت قال: ﴿ءَأَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

## العلماء الأربعة

وعبد الملك بن مروان الخليفة الأموي يقول في سكرات الموت: يا ليتني ما توليت الخلافة. فسمع سعيد بن المسيب هذا الكلام وهو سيد التابعين.. العالم.. المجتهد.. البحر.. المحدث.. الزاهد.. العابد.. قال: الحمد لله الذي جعلهم يفرون إلينا في سكرات الموت ولا نفر إليهم. ذكر ذلك الذهبي في سير أعلام النبلاء.

وسمع مرة عبد الملك وهو في مرض الموت غسلاً.. وكان في قصر في دمشق، والرجل في وادٍ، سمع الرجل يغني، وليس عنده خبر بالخلافة ولا بعبد الملك أنه في مرض الموت، ينشد مرتاحاً، ليس عنده إلا ملابس يغسلها للناس ويأكل وينام مرتاحاً، قال عبد الملك: يا ليتني كنت غسلاً، يا ليتني ما توليت الخلافة، يا ليتني ما عرفت الملك.

وأذكر أن المحدث أبا زرعة رحمه الله وهو من الحفاظ الكبار، وقرين لأبي حاتم، حضرته سكرات الموت فأغمي عليه، فأراد الطلاب أن يذكروه بـ (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) لأنه كما صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة» فاستحيوا أن يذكروه؛ لأنه عالم وحافظ وبحر، فأتوا بالحديث لكي يرووه فنسوا سند الحديث، قالوا: حدثنا فلان.. فغلطوا، فاستفاق من غيبوبته وقال: حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة» ثم قال: لا إله إلا الله، ثم مات. رضاه

ومسلم صاحب الصحيح، مسلم بن الحجاج، وهو عالم رباني، رزقه الله القبول مع صحيح البخاري، أراد أن يبحث عن حديث ليلة من الليالي، حديث للرسول ﷺ يبحث عن صحته، فأتى بالكتب وعنده سلة كبيرة من التمر، هناك نوع من التمر من خراسان حار، إذا أكثر منه الإنسان يؤثر فيه، فنسي مع البحث عن الحديث نفسه وذهل، وأخذ يأكل التمر.. ثم أكل، حتى انتهى من السلة كلها،

ولما أصبح الصباح أثر عليه وهو يبحث الحديث، فقال: أم. ثم مات- غفر الله له- مات في سبيل طلب الحديث وطلب العلم، يخدم سنة النبي ﷺ، ولذلك أعطاه الله من القبول هو والبخاري، والآن في كل مسجد، في كل قنّاة.. في كل مجمع.. في كل جامعة.. في كل مجلس.. في كل مدرسة.. رواه البخاري ومسلم، فجزاهما الله خيراً على ما قدماه.

يقول أحد المحدثين، وقد كان في سكرات الموت، فسمع طلاب علم وراء جدار يقولون: حدثنا.. حدثنا... وكان في حياته يقول: حدثنا...؛ لأن المحدثين يستخدمون كلمة حدثنا وأخبرنا، قال: أسندوني أسندوني، يعني: انتعش، وهو في سكرات الموت، فلما أسندوه قال:

سَقُونِي وَقَالُوا: لَا تَغْنُ وَلَوْ سَقُوا جِبَالَ سَلِيمٍ مَا سَقِيَتْ لَغْنَتِ

والبيت هذا لأحد العرب؛ لأنه سقوه مسكراً فقاله.

يقول: لو سقوها ما سقيت من الخمر لغنت. فنسأل الله ﷻ أن يُلطف بنا، وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها.

